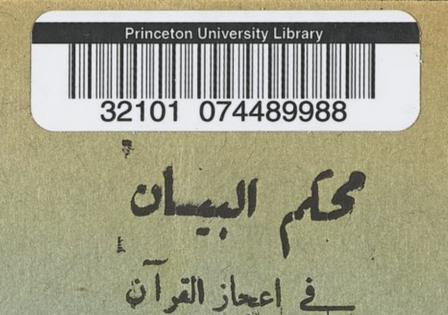


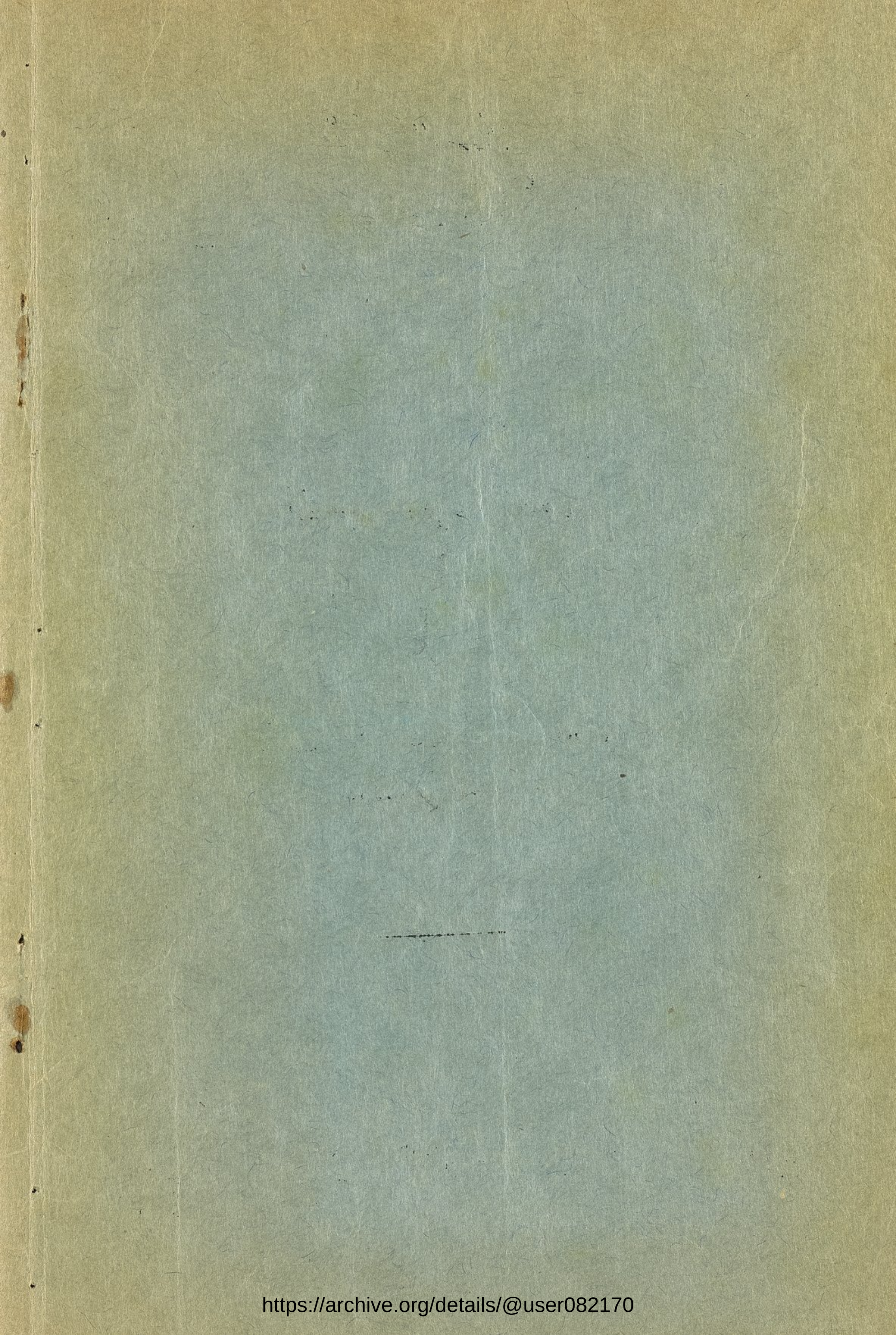
محكم البيان

في إعجاز القرآن

تفسير صورة يس

تأليف العلامة الشيخ عبد الله الدهلوي
النقشبندي البغدادي

طبع بمطبعة الترقي باللاذقيه سنه ١٣٤٧



محكم البيان

في اعجاز القرآن

تفسير سورة يس

تأليف العلامة الشيخ عبد الله الدهلوي

النقشبندي البغدادي

طبع بمطبعة الترقي باللاذقية سنة ١٣٤٧ ه

بسم الله الرحمن الرحيم

الحمد لله الذي اوجد العالم بقدرته ووزعهم بارادته انواعا وحفهم برحمته حفظاً لبقائهم وهيأ لهم جميع لوازم الحياة ومهد مناهج الارتقاء وانزل من سماء عزه شرعا هاديا ونظاما متكفلا بالحياة وكاشفاً للريوب وموضحاً للحقيقة فانارت شمس اساليبه الظلام ناصبة فوق معالم الهداية الاعلام انزل كتاباً تحن الى بدائع وصله الارواح والى محاسن اطنابه البلغاء وتشتاق النفوس الى فصله الوضاح وفي ايجازه مهب نسمات الافراح وارسل رسولا خاطبه بمعالم ايجاده مبيناً ما اراده من عباده ارسله ليكون مبلغ خزائن علمه وكاشف ما تقرر في قضائه صلى الله عليه وعلى آله واصحابه . اما بعد فان العالم محتاج الى نظام وشرع لا يتم الامر بدونهما فارسل الله رسوله انقاذاً للامم من ظلمات الاحتياج ليزيل عنهم عاصفات الجهل والناسفات للبقاء فجاء كتاب الله رحمة جمع قلوبهم وانارت عوامل مواعظه في نفوسهم حب الكمال فخمدت نار احقادهم وعلمت الامة ان الحياة لا يتم امرها الا بشرع يتكفل بحقوقها ويجمع شؤنها ولما شاهدوا ان كتاب الله جمع الحقائق وكشف عن وجه الحقيقة البراقع وبان صبح الهدى ومسالك الارشاد فأنقادوا اليه

ولما كان كتاب الله ذا شأن عظيم في الحياة الاجتماعيـة فاردت ان ابحث موضحاً آياته فطلب مني بعض الاخوان ان اشرع في تفسير سورة (يس) فبدأت متوكلا على الله الا ان البحث عن كتاب الله وبيان مضامينه يقتضي امعان النظر في معانيه وتراكيبه

ولما كانت المعاني هي الاصل في المطالب وهي الغاية في المسائـل جعلت البحث عنها اولياً لانها المرشدة والمتكفلة بأيقاظ البشر وتكامله وليست الالفاظ الا اوضاعا وقوالب تؤدي ذلك المعنى فجعلت البحث عنها ثانوياً ولما كان اداء المعاني باساليب الكلام متفاوتا بحثنا عن الكلام من حيث اداءه للمعنى بحثاً تركه المتقدم للمتأخر قاصداً ان اصور ان لكتاب الله في اداء المعني اسلوبا معجزاً) ولما كان هذا متوقفاً على تقديم مقدمة تمهد ما نحن بصدده فنقول

مقدمة

الكلام اما ان يكون جملة خبرية او جملة انشائية وكل منهما تخالف الاخري فما تفيده الجملة الخبرية لا تفيده الجملة الانشائيـة لان الواضع خص كلا منهما بمعنى وحذراً من الانقلاب في الحقائق الوضعية جعـل هذا الاختصاص فالجملة الخبرية تحكي عن نسبة اتصاف الموضوع بالمحمول وكذلك الانشائية تعبر عن نسبة ايجاد وصف او فعل لان التمايز في الجمل باعتبار معانيها لا باعتبار تراكيبها كما زعموا واطلاق الخبرية والانشائية

على الالفاظ مجاز من اضافة ما للمظروف للظرف وان المتصف بهما هي المعاني حقيقة والالفاظ واسطة نقل المعاني الى المخاطب على كيفية ما هي عليه واذا كان التركيب هو حكاية والمعاني محكيٍ عنه كان تمايز المعاني امراً طبيعياً وثابتاً في نفس الامر

ثم ان طابق المحكي المحكى عنه كان الكلام مقبولا وان لم يحكِ عن مايريده المخاطب كان الكلام مردوداً وساقطاً فعلى هذا يلزم بيان المعاني الخبرية وتعين ما هي واثبات انها ممتازة بنفسها) فنقول ان الوقائع والقصص والاحكام المترتبة على طبيعة الموضوع هي المعاني الخبرية والتراكيب التي تفيده تسمى بالجمل الخبرية لانها عبارة عن حكاية اتصاف الموضوع بالمحمول والانشائية هي التي لا تصح الحكاية عنها واذا كان المحكي عنه من المعاني الخبرية فالتراكيب التي تبينها يقتضي ان تكون موافقة لها فعلي هذا تكون الجمل متنوعة باعتبار معانيها والتراكيب حاكية عنها فان ادت المعنى موافقاً للعربية كان للكلام شأن في الجملة وان طابق مقتضى الحال او الظاهر كان الكلام بليغاً فظهر من هذا ثلاث قضايا (القضية الاولى) ان المعاني ممتازة بنفسها (والثانية) ان التراكيب تابعة لها وحاكية عنها (والثالثة) ان الكلام البليغ ليس حكاية الالفاظ عن المعاني فقط ولا موافقة المحكى عن المحكى عنه بل البلاغة عبارة عن اساليب بديعة وانظمة تقرب المعاني الى المفكرة باسلوب حاك عن مقتضى الحال فهذه القضايا (الثلاثة) اقتضى ان نجعلها معياراً في البحث عن الكلام ليظهر ما نريده واضحاً وبناء عليه بحثنا في تفسير سورة (يس) عن كيفية الاعجاز وعن المعاني ليظهر ان لكلام الله صورة

ممتازة بنفسها فنقول

ان سورة (يس) نزلت لتصوير احوال الامم في القرون الماضية وما كانت عليه من المعتقدات التي جعلتها تخوض في معترك حياة فاسدة فتلخص من هذا التصوير والبيان ان الامم في تلك الادوار ما كانت مدركة معني الاله ولا مقتضيات الحياة فعاشت بروح الفرد لا بروح التوازن الاجتماعي فصورت الخالق والموجد للعالم على انحاء شتى واشكال مختلفة فالاله عند تلك الامم الماضية هو الصورة المتخيلة فكل فرد نصب له تمثالا فاختلفت باختلاف المخيلات وتعددت التماثيل فآلهة الفرس كانت النار وآلهة العرب كانت تماثيل مختلفة الاشكال منتزعة من المخيلات المتفاوتة وقد كانوا يرجون منها ضراً ونفعاً وهذه الحالة اللا ادراكية ولدت اللاتعقل الهادم للحياة وحذراً من القضاء على حياة البشر وصوناً له من الهلاك ارسل الله محمداً صلى الله عليه وسلم يدعوهم الى الهدى حسبما يؤمر ويوحى اليه وقد كان الوحى يأتيه بايات وحكم لاهوتية واسرار ربانية ومن الايات التي نزلت عليه صلى الله عليه وسلم مفصلة احوال الامم ومرشدة الى مواقع الهدى بالبراهين الخطابية واليقينية سورة (يس) ومن بدايع اساليبها انها جمعت الاسباب الموجبة لارسال الرسول وان الارسال لاجل ايقاظهم وخلاصهم من مهالك الجهل والغفلة كما هو المفهوم من قوله تعالى

(يس) والقرآن الحكيم انك لمن المرسلين على صراط مستقيم تنزيل العزيز الرحيم لتنذر قوماً ما انذر آباؤهم فهم غافلون

فان مفاد الآية وخلاصتها ان الامة في غفلة مستمرة استولى عليها

الجهل فما امكنها ان تهتدي الى معاشها ومعادها فاختل نظامها واضطربت حياتها وكانت الفوضى الاجتماعية سائدة فيها فما تدري ماذا تفعل فهي في حيرة فارسل الله الرسول ليمهد لها مناهج السير في الحياة ويرشدها الى محاسن المعاد الا ان هذا البيان جاء بالآية على صورة ارتفع بيانه عن حد البلاغة الى حد الاعجاز واليك اثباته لتعلم ما فيه من المحاسن الا ان بيان الاعجاز متوقف على تمهيد مقدمات (الاول) بيان ما به التخاطب فان الكلام في المواعظ والخطب يبني على اساس هو عنوان البحث او هو ما به التخاطب وفي هذه السورة هو الايقاظ من الغفلة وارشاد الامم الى مناهج الهدى (الثاني) انا قد ذكرنا في كتابنا (اكمال بلاغة العرب) ان موارد الكلام كثيراً ما تختلف ولكل كلام مقتضى ولا يجوز ان نتصور كلاماً لا غاية في بيانه لانه ليس بمعقول واذا كان لكل كلام غاية فالمخبر كثيرا ما يذكر الكلام ولا يريد به بيان اتصال المحمول بالموضوع بل يريد لازم الخبر وبناء على ذلك اقتضى ان نتحرى ما هي الغاية وما هو المراد لان البحث عن الشيء قبل معرفة غايته وموضوعه لا يأتينا بفائدة ولم نتمكن من معرفته فاذاً يلزمنا ان نعين اولا ما به التخاطب ليلتئم البحث وقد ذكرنا ان الغاية هي ايقاظ الامم وتبنيه العقول وارشادها وبيان ان القرآن متكفل بذلك وانه نفي الموانع الموجبة لعدم قبول الارشاد واوضع الاسباب الموجبة للاذعان بالآيات وان محمداً عليه الصلاة والسلام جاء مبلغاً لتلك الآيات ومجموع ما قررناه يشير الى حكمة ذكر القرآن موصوفاً كما في قوله (يس والقرآن الحكيم انك لمن المرسلين على صراط مستقيم تنزيل العزيز الرحيم)

فوصف القرآن بانه حكيم والحكيم هو الذي يضع الاشياء في مواضعها ويأتي بها مطابقاً ثم وصفه بأنه تنزيل العزيز الرحيم لبيان ان القرآن حجة بالغة اثر علي النفوس واستولى على العقول ونشر حكما باهرة يعز ردها مهما حاول المعارضون لانه من عزيز . ثم وصف الرسول بانه على صراط مستقيم فمجموع الاوصاف بينت الاسباب الموجبة للارشاد وجعلتها توطئة للحكم الآني محتوية على رد المنكرين للرسالة ومبنية بان القرآن كاف ليكون نظاماً وشرعا ناهضاً بالامم من رقاد الغفلة وموضحاً لها مناهج السير في مقتضيات الحياة فاندفع ما يقال ان القرآن والرسول ذكرا في عدة مواضع من القرآن فاي حاجة الى ذكرها هنا نعم : انهما ذكرا بياناً للمقتضى وهو كون القرآن حجة بالغة محتويا على براهين كافية لارشاد العالم ومبنيا ادراك الحقائق فالمقتضى هنا غير المقتضى في تلك المواقع فعلي هذا يكون ذكرها لبيان ان الله ارسل رسولا هاديا وقرآنا مرشداً . ثم اعلم ان هذا البيان جاء باسلوب معجز لانه زيف انكارهم لرسالة محمد باثبات كونه عليه الصلاة والسلام مرسلا من الله ارسله منذراً لقوم تمادوا في الغفلة واستمروا عليها لينقذهم من الضلال الى الهدى . ومن هنا يظهر ملاحظات لازم ذكرها — الاول ان تزييف انكارهم هل يعده البلغاء وجهاً للاعجاز — الثاني انه قد سبق ان الاصل هي المعاني والتراكيب تابعة له وهنا عكس الامر — الثالث ان وجه التزيف لانكارهم غير ظاهر — الرابع هل في الاية اشعار على تماديهم واستمرارهم علي الغفلة — الخامس انه ليس فى ظاهر الاية ما يشعر بان اتباع محمد يكون سبباً لنجاتهم

الجواب عن تلك الملاحظات ان تزييف الانكار لا يعد معجزاً ولكن تصويره واداؤه على الوجه الذي بين هنا يعد معجزاً وبيانه ان القوم انكروا ان القرآن من عند لله وانكروا ان محمداً رسول الله فقاعدة البيان يقتضي ذكر الدليل واثبات الدعوى — لا القسم بما انكروا هذا هو المقتضى ولكن جاء الرد والبيان بارفع درجاته اذ بين ان القرآن ليس من الامور المستحقة للانكار . اذ اوقعه موقع ما يقسم به ليعلم المنكر عظيم شأن القرآن وتنويها لعظمة شأنه وصفه بكونه حكيما وتنزيل العزيز الرحيم ليعلم ان هذين الوصفين احدهما وهو لفظ الحكيم يدل على ان القرآن شرع محكم البيان بديع الاساليب واضح البيان متكفل بنجاة الامة من المهالك (والثاني) كونه تنزيل العزيز الرحيم يدل على انه منيع لا يرد وان المعارضين يعجزون عن معارضته وينقادون اليه لوضوح حجته كما هو المفهوم من قوله تعالى تنزيل العزيز الرحيم لان معنى العزيز الدي لا يغلب على امره — واشار بالرحيم على انه قادر علي هلاك المعارضين لولا تجليات رحمته وبعد ما بين القرآن ورفعة شأنه حيث اقسم به جعل جواب القسم تحقق رسالة محمداً وتأييداً لذلك المتحقق ذكر انك علي صراط مستقيم ويشير نظم الكلام وهذا الاسلوب الى ان بين القرآن ورسالة الرسول علايق هي من الاسباب الموجبة لاثبات رسالته — وبيان ذلك انه اوقع القرآن موقعا لا يجوز لعاقل ان ينكر كونه من الله اذ بين انه يشتمل على حكم لا يأتي البشر بها وامور هي من كنوز علمه تعالى وانه انزل على محمد وهو مخاطب به فهذا السلوب من البيان

يعد معجزاً كما ذكرنا اذ الم بمعاني كثيرة مع الايجاز وصور لنا وضوح قوة براهين القرآن وبين رداءة ملكات نفوس المعارضين كما هو المفهوم من قوله تعالى فهم غافلون لان تصوير حالهم بعد ذكر تلك البراهين بالجملة الاسمية التي محمولها غافلون كانـه يفصل علينا فساد مـدركاتهم ورداءة اخلاقهم بحيث لا يمكنهم «ان يختاروا الصالح ومما قررنا تبين الجواب عن الملاحظة الاولى والثانية

ثم ان الآية تذكر لنا القرآن والرسول موصوفين — وليس لنا لحاظ ما هو موصوف مجرداً عن وصفه — فاذاً لابد من لحاظه مع عنوان الوصف وذلك ينبي بكيفية ابتناء الحكم على ما يقتضيه الوصف — فيكون الكلام كالنص بان اتباع محمد باعث لنجاتهم) ومن هـذا يتبـين اندفاع باقي الملاحظات

١ وعلاوة على ما ذكرنا من المزايا ان في الآية تصور حال البشر — وتبين قابلية ادراكه بيانا افادنا ان حالهم كان سبباً للاحكام المقررة الا انـه جاء باسلوب بديـع حيث بني الحكم اللاحق على الحـكم السابق واوضح علية الحكم والاسباب الموجبة له وهذا في البيان معجز لا سيما وقد كان نظمه ذا لحاظين الاول — الاخبار عن شيء بما هو عليـه ومـا يستحقه من الاوصاف الثاني — انه ذكر على هذا العنوان توطئة — لقوله تعالى « لقد حق القول على اكثرهم فهم لا يؤمنون » اذ هـذا الاسلوب يصور للمخاطب مضامين الاحكام ويفيدنا ما يقتضيه المحكوم عليه من الحكم ويوقع في النفس تعينه — لان محاسن البيان كثيراً مـا تصور النتايج بمجرد الموضوع وهنا لما افادنا الكلام ان استمرارهم على

الغفلة ازال قابلية الادراك فلا يمكنهم ان يدركوا مهما كانت الحجة بالغة والبراهين ساطعة فلا يختاروا ولا يلتفتوا الى ما هو الصالح

وهذا التصوير اوضح لنا تأثير عوامل الغفلة وبين صورة تأثيرها في فساد الاخلاق والمدارك العقليـة بحيث افادنا ان هؤلاء ليس للحجـة والبرهان سلطان عليهم لان تماديهم واستمرارهم علي الغفلة سلب منهم قابلية الادراك وهذا التصوير يدفع في النفوس ان هؤلاء استحقوا ان يحكم عليهم بقوله تعالى (لقـد حق القول على اكثرهم فهم لا يؤمنون) وهذا النهج تفرد به كتاب الله العزيز) فتلخص من هذه الآية ان الغفلة سلبت من الامة قابليـة الادراك فلم تؤثر الحجة لانها افسدت ادراك ما هو الاصلح فلا يمكنهم ان يؤمنوا فيكون عدم الايمان مبيناً على اختيارهم المفاسد وتماديهم في الغفلة وان الارادة الالهيـة تعلقت بهم عقيب ذلك الاختيار لاقبله وهذا هو التحقيق. ثم ان الاية تشير الى انه تعالى لما اوجد العالم قرر نظاماً وبين ما ينجيهم ويكون سببا لحياتهم وسعادتهم وهذا المعنى مفهوم من قوله تعالى (والقرآن الحكيم) اذ هذا الوصف يشير الى ان الانظمة الوجودية المقررة في علمه الازلى هي التي تكون سببا لصلاح الامة وفلاحها بخلاف الانظمة التي وضعتها الامم فانها اعتبارية

وربما يخطر في البال ويقال لماذا جاء اسلوب الكلام على نحو ان الرسول من المرسلين عليهم صلوات الله اجمعين كما في قوله تعالى (انك لمن المرسلين) قلت هـذا البيان من مقتضى الحال فان القوم لما انكروا رسالة الرسول ذكرهم بانه رسول من جملة الرسل المؤيدين والقوم يعلمون

ما كان للرسل ويحفظون لهم معجزات ايدتهم ووقائـع شيدتهم ودمرت المنكرين وافلح المؤمنون فبيان رسالة الرسول على هذا النحو ليعلم انه عليه الصلاة والسلام داخل في زمرة المحسنين فانكارهم لرسالته يجلب عليهم جزاء وعذابا في الدنيا والاخرة والايمان به يكون باعثاً لنجاتهم وخيرهم كما ان انكار رسالة المرسلين كانت خزيا في الدنيا والاخرة فمجيء الكلام على هذا الاسلوب باعث الى التأمل في الاحوال الماضية ليكون مؤيداً بالحوادث والوقايع) ثم انه تعالى بعدما وصف القرآن بكونه حكيما وصفه ثانياً بكونه تنزيل العزيز الرحيم بناء على مقتضى الحال لا الظاهر لان الامة ارادوا ابطال رسالة الرسول والاعراض عن القرآن بالقوة لا بالحجة فبين الله لهم ان هذا القرآن انزله العزيز الرحيم الذي لا يعارض بالقوة وانه الغالب فيما اراد

مبحث في بيان خلاصة ما في هذه الاية من الاعجاز

الاعجاز بلوغ الكلام منتهى البلاغة بحيث يرتفع الكلام الى درجة يعجز البشر ان يأتي بمثله

نعم اعجاز القرآن تنوعت اساليب بيانه في اداء المعنى حافظاً لنفسه صورة خاصة به ليس في امكان البشر ان يأتي بمثلها ومنه سورة (يس) فانها صورت حياة الامم في القرون الوسطى وبينت علة بعثة الرسل عليهم الصلاة والسلام وكان هذا البيان بديعا معجزاً اذ ألم بحقائق من البلاغة لا يدركها البشر فعدل في مقام يترأى انه يقتضي ان ينسج الكلام موافقاً لمقتضى الظاهر الى مقتضى الحال لان الحقيقة تدعوا اليه والمقتضى يطلبه)

ولنصور لك ذلك فانه تعالى لما قال (والقرآن الحكيم) كان يترأى لنا انـه يقتضي ان يذكر بعد ذلك تنزيـل العليم الخبير لان الكتاب المنطوي على الحكمة يقتضي ان يكون من عليم خبير ولكن لو جاء النظم على هذا العنوان في هذا المقام كان مخالفاً ومختل النظام لانه لايؤدي معنى به التخاطب ولا ما ينتظره المخاطب من انه حجة بالغة ينقاد اليها الامم وينتشر ضياءها كاشفا للظلام وحافظا للبقاء الاجتماعي ولما كان هذا المعنى في هذا المقام هو المقتضى عدل عن مقتضى الظاهر الى مقتضى الحال فقال تعالى تنزيل العزيز الرحيم ليفيد ما هو المقتضى من انه حجة بالغـة موأيدة وقد ذكرنا في كتابنا (اكمال بلاغـة العرب) ان المتكلم اذا ذكر دعوى اما ان تكون مسلمة او ممنوعة وطريق اثباتها على تقدير كونها ممنوعة قد يكون بتزييف الانكار وقد يكون بالدليل فيما اذا كانت الدعوي بديهية والمخاطب ينكرها ويكابر فيها مكابرة مراوغ فالتزييف والتبكيت ارجح من اثباتها لانه لا دليل في البديهيات وان كانت ممنوعة وغير بديهية فالبرهان ارجح ولمـا كان القرآن ورسالة محمد من الامور البديهية ذكر اسلوب الكلام على طريق تزييف الخصم مع تنبيه وقال العلامة المحقق ابو السعود العمادي في تفسيره على قوله تعالى (انك لمن المرسلين) جواب القسم ورداً لانكار الكفرة بقولهم في حقه عليه الصلاة والسلام لست مرسلا وهذه الشهادة منه عز وجـل من جملة ما اشار اليه تعالى (قـل كفى بالله شهيداً بيني وبينكم) وفي تخصيص القرآن بالاقسام به اولا وبوصفه بالحكيم ثانياً تنويه لشأنـه وتنبيه على انه كما يشهد برسالته عليـه الصلاة والسلام من حيث نظمه

المعجز المنطوي على بدايع الحكم يشهد بها من هذه الحيثية ايضاً لما ان الاقسام بالشيء استشهاد به على تحقيق مضمون الجملة القسمية وتقوية لثبوته فيكون شاهداً به ودليلا عليه قطعا وخلاصة ما قال الامام الرازي ان هذه الاية دليل خرج بصورة اليمين واقيم مقام الدليل على كونه مرسلا من الله ذكرنا لك خلاصة ما في الاية من الاعجاز وبينا لك معنى الاية تفصيلا فالنذكر خلاصة المعنى

هو ان الله سبحانه وتعالى لما رأى ان الامة فسدت قواها العقلية وملكاتها النفسية لتماديها في الغفلة واستمرارها على الشهوة بحيث كانت شرائع تلك الامة شهوات القوي الغالب والجبار المتغلب وحذراً من هدم البقاء ارسل الله رسولا بشرع متكفل فيه وحافظاً للحقوق المتقابلة ومرشداً للامم الى مناهج الصلاح

واما اعرابها (مبحث في اعراب الاية)

(يس) قالوا انها اسم للسورة وقال البعض اسم من اسماء محمد فعلى الاول يكون مفعولا لفعل محذوف اي اتلو (يس) وعلى الثاني منادي محذوف (والقرآن) قسم على كل وجه (انك لمن المرسلين) ولمن المرسلين خبر ان (وعلى صراط مستقيم خبر ثان ويجوز ان يكون حالا من ضمير المرسلين والمجموع جواب القسم (وتنزيل العزيز الرحيم) يجوز فيه ثلاثة اوجه - الاول الرفع على انه خبر - اي هو منزل الثاني النصب بفعل محذوف اي تنزل تنزيلا والثالث الجر على انه صفة للقرآن (لتنذر) متعلق بقوله مرسل او بتنزيل (قوماً) مفعول لتنذر (ما انذر اباؤهم) (ما) نافية او مصدرية او موصولة فعلى تقدير

كونها مصدرية او موصولة تكون صفة وعلى تقدير النفي تكون مفعولا ثانياً (لتنذر)

وبعد ما بين حال المرسل والمرسل به بيانا يستلزم ثبوت المرسل به ثبوت المرسل وكونه عظيم الشأن رفيع الجاه بين حال المرسل له كما مر ذكره » وخلاصته ا ارسلناك لقوم تمادوا في الغفلة ففسدت ملكات ادراكهم . فلم يؤثر الانذار بهم — فان قيل لماذا ذكر (ما انذر اباؤهم) وفرع عليه بما يشعر بالتمادي قلت قد سبق البيان في ذلك

ثم اعربت جملة « ما انذر اباؤهم » على ثلاثة وجوه من الاعراب الاول كون « ما » مصدرية والثاني كونها نافية والثالث كونها موصولة وكل منها يباين الاخرى — فما المصدرية غير النافية والنافية غير الموصولة وكذلك الموصولة والمصدرية تنافي غيرها وهذه المغايرة تقتضي التغاير فى المعنى ايضاً . ولكن المعربين والمفسرين لم يبينوا وجه المغايرة وكان اللازم بيانها قلت . ان تغاير الاعراب يستلزم التغاير في المعاني وهنا كذلك فاننا اذا قلنا «ما » نافية يكون المعنى لتنذر قوماً لم يسبق لابائهم انذار وعلى هذا تكون الغاية من البيان التسجيل عليم بالتمادي والاستمرار بالغفلة بحيث تفيدنا ان هؤلاء الامة لم يكن لهم علم بمقضيات الحياة لانهم توارثو من آباؤهم اخلاقا غير مرضية ولا معقولة وعلى تقدير كون « ما » مصدرية يكون المعنى « لتنذر قوما انذار آباءهم » وعلى هذا يكون مفاد الاية ان القوم الذين ارسلت اليهم تمادو بالغفلة فافسدت ملكاتهم الغفلة بحيث اعرضوا فارشدهم كما ارشد آباؤهم وعلى تقدير كون (ما) موصولة يكون المعنى لتنذر قوما الذين

اندر آباؤهم فيكون الغاية من البيان قريباً من (ما) المصدرية وعلى كل من الوجوه الثلاثـة فالمراد من ذكر الاباء على ما يظهر التسجيل عليهم بالغفلة وتوطئة للحكم اللاحق» وبعدما مهد وبين اسباب الحكم قال تعالى (لقد حق القول على اكثرهم فهم لا يؤمنون) والمعنى حكم عليهم بالعذاب لعدم ايمانهم والبيان بالجملة الاسمية وهي قوله (فهم لا يؤمنون) اشعاراً بتماديهم واصرارهم على الكفر ولما كان هـذا من قبيـل انشاء الحكم اللاحق على الحكم السابق كان علة عدم ايمانهم تماديهم بالغفلة واصرارهم فاندفع ما قاله الجبرية بان الله حكم عليم بعدم الايمان لانه تعلقت ارادته وعلمه بكفرهم ازلا فسلب منهم اختيار الايمان فكانوا مجبورين على الكفر الا ان توجيه الجبرية مخالف لنظم الاية لان هـذا الحكم ذكر بعـد بيان احوالهم بحيث كانت الايات السابقـة من الاسباب الموجبة للحكم عليهم وذلك من قبيل بناء المعلول على العلة فـلا يجوز ان نقول كما قالوا والا لاختل نظام الكلام واقتضي ان لا تكون الاية من قبل انشاء الحكم على ما قبله . نعم اننا نسلم ان الله علم واراد كفرهم ولكن بعد ان اختاروا الكفر فيكون تعلق الارادة لاجل وجوده وذلك مبحث حققناه في رسالتنا (القضاء والقدر) فان قيل اذا كان الله يعلم انهم لا يؤمنون فما الفائدة في الانذار ولماذا ارسل رسولا قلت ارسال الرسول كان حافظاً للبقاء ومانعاً لتهاجم الفساد الذي اعمى بصائرهم فعلى هذا يكون في البيان اشعار بان عوامـل الغفلة اماتت عقلية الاكثر منهم موتا معنويا مؤداه الدمار وصوناً من ذلك ارسل الله الرسول ليرشدهم الى مقتضيات الحياتين ويهدوهم الى اسباب

السعادتين وبعد ما صور لنا تأثير عوامل الغفلة بنوع وادلى للعقول انها علة انحطاط البشر اردف ذلك ببيان اجلى بحيث كان مبارات نظمه المعجز يصور كنهه تلك الحجب وتأثيرها بوجه مشاهد محسوس يخيل تلك الحجب المعنوية كأنها ملموسة محسوسة ليعلم ما كان عليه من شدة الاحتياج وليتدبر المتفكر ما للرسل من الفضائل وما للشرايع من العوامل تصوير من شاهد المعقول محسوساً فقال تعالى « انا جعلنا في اعناقهم اغلالا فهي الى الاذقان فهم مقمحون وجعلنا من بين ايديهم سداً ومن خلفهم سداً فاغشيناهم فهم لا يبصرون »

فاسلوب الاية يقرر تصميمهم الناتج من عوامل الغفلة ويبينه على طريق الاستعارة التمثيلية ليصور لنا هيئة العوامل والتأثيرات التي انتجتها الغفلة تصويراً به نشاهد المعقول بصورة المحسوس فتكون المفاسد التي اثرت على النفوس والملكات العقلية كانها ملموسة ولهذا شبهت الحالة الحاصلة من الاستمرار والتمادي على الغفلة بحال المقيدين باغلال احاطت بعنقهم ممتدة الى ذقونهم واضاف الى تلك الاحاطت حصر وجودهم وعموم هيئتهم بين سدين واوقوع الحالة الحاصلة من هده الاغلال والسد موقوع المشبه به والحالة الحاصلة من عوامل الغفلة موقع المشبه وحدف المشبه وذكر المشبه به فكانت الاستعارة تمثيلية مصرحة وهدا التشبية ابان لنا تأثير عوامل الغفلة لان الاية كناية عن انقطاع اسباب العلم عنهم بحيث لا يمكنهم ان يدركوا شيئاً فهم في همجية الجهل والضلال المتمادي ومثل هده الامة تكون ملكات نفوسها فاسدة كانها سد وحصن حاجز من وصول الحجة وتأثيرها فلا يمكنهم ان

يهتدوا و ينتخبوا ما هو الصالح وهـذا المعنى هو مفاد الاية لانها صورت حال الغافلين تصويراً افادنا ان المحكوم عليهم ب (لا يؤمنون) لا يمكنهم ان يتفكروا في شيء ولا يتدبروا في امر

﴿ مبحث في بيان معاني الكلمات الواقعة في الاية لغة ﴾

الاعناق جمع عنق والاغلال جمع غل وهو ضم الايدي بعضها الى بعض بالقيود والاذقان جمع ذقن ومقمحون جمع مقمح والمقمح الذي يرفع رأسه ويغض بصره يقال قمح البعير فهو قامح اذا روي فرفع رأسه والفاء في فهي للسببية والضمير عائد للاغلال لانها نتيجة ما ذكر من البيان والسد بمعنى الحصن ومن بين ايديهم المراد امامهم ومن خلفهم وراءهم واغشيناهم غطيناهم والفاء في فهم للسببية وضمير (هم) للمشركين الموصوفين بهذه الصفة . فعلى هـذا يكون معنى الاية ان الاغلال واصلة الى الاذقان ملزوزة اليها وذلك ان طوق الغل الذي في عنق المغلول يكون ملتقى طرفيه تحت الذقن حلقة فيها رأس العمود فلا يمكنه ان يطأطئ رأسه . فلا يزال مقمحاً وان السد الحاصل من امامهم ومن وراءهم على كيفية التغشية لم يمكنهم ان يبصروا امراً ولا يدخروا وسيلة بل هم في عماء متماد

قلنا قبلا ان هذا التصوير جاء على طريق الاستعارة التمثيلية ويمكن ان يكون من قبيل تشبيه تصميمهم واستمرارهم على الكفر بالاغلال وكذلك تشبيه استكبارهم عن قبول الحق وعن الخضوع والتواضع بالاقماح ويكون (فهي الى الاذقان) نتيجة للزوز وايضاً شبه عدم التفكر في تلك القرون والادوار بحال امة سد من خلفهم وشبه عدم النظر في العواقب بحال امة سد من قدامهم

فيكون معنى التصوير من قبيل تشبيه المركب والارجح ان تكون الاستعارة تمثيلية

قال تعالى (وسواء عليهم أنذرتهم ام لم تنذرهم لا يؤمنون) فصل احوال المشركين الغافلين اولا و بين استعدادهم وكيف افسدت الغفلة الملكات العقلية ثم عاد الكلام ثانياً لتقرير عوامل تلك الملكات والحكم عليها بنوع غير ذلك ليظهر ان المشركين سلبت منهم قابلية الكمالات و بناء على ذلك كان الانذار وعدمه سواء لان عقولهم لا تقبل ارشادا ولا هدى

اجل ان الحالة العقلية اذا الفت امراً تنفر عن نقيضه وهؤلاء المحكوم عليهم ب (لا يؤمنون) الفت عقولهم و نفوسهم الانهماك بالشهوات فنفروا عن الايمان لما بينا فالانذار وعدمه لا يؤثر فيهم

الانذار التخويف والسواء بمعنى الاستواء ودخول الهمزة وام لتأكيد مضمون النسبة الواقعة بين المبتدأ والخبر وان سواء عليهم أأنذرتهم ام لم تنذرهم مبتداء فيكون حاصل الاية الانذار وعدمه سواء وهذا الحكم يغاير بنوعه الحكم السابق و يكون كالنتيجة المبنية على ما تقدم

قال تعالى (لا يؤمنون) هذه حالة مرتبة على ما قبلها فتكون مفسرة والمفسرة تقتضي كمال الاتصال او بدل و ربما يقال انه تعالى اخبر عنهم بانهم لا يؤمنون واخباره لا يجوز فيه الخلف فبناء على ذلك كان مفاد الاية ان المشركين لا يقع منهم الايمان لا في الحال ولا في الاستقبال فلماذا كلفهم بالايمان وهو عالم بانهم لا يؤمنون فهل لا يكون هذا التكليف دليلا على وقوع التكليف بما لا يطاق قلت ان التكليف بما لا يطاق اجازه الاشاعرة ومنعه الماتوريدية الا ان هذه الاية لا تكون حجة للاشاعرة لأننا اذا لاحظنا اسلوب البيان نجد الاية

تحتوي على لحاظين فلحاظ الحكم عليهم بعدم الايمان غير لحاظه بالتكليف بالايمان وذلك انه تعالى لما كلفهم بالايمان بنى التكليف على انهم من الذين يخاطبون وبدون ملاحظة العوارض التي طرأت على استعدادهم فاخرجتهم من طور البشرية الى طور البهيمية واما لحاظ الحكم عليهم بانهم لا يؤمنون ليس من تلك الجهة بل من جهة انهم عدلوا عن مقتضيات البشر وانغمسوا بالغفلة بحيث لا يمكنهم ان يدركوا مناهج الهدى فالتكليف مبنى على استعدادهم الاصلي وما تقتضيه الفطرة البشرية والحكم مبني على الاسباب المانعة التي حصلت اخيراً على ذلك الاستعداد فتلخص من تقريرنا هذا انه تعالى لما خلق البشر جعل فيه قابلية الخطاب ووضع استطاعة العمل وبناء على ذلك خاطبهم بالايمان وكلفهم به الا انهم تلوثوا بالاحوال الرديئة فسلبت منهم تلك القابلية فتبين مما ذكرنا ان الاية لا دلالة فيها على جواز التكليف بما لا يطاق

قال تعالى — (انما تنذر من اتبع الذكر وخشي الرحمن بالغيب فبشره بمغفرة واجر كريم)

فانه تعالى لما ذكر الايات التي تقدم ذكرها وبين الاسباب المانعة من الوصول الى الايمان باسلوب يصور لنا العوامل المؤثرة اراد ان يبين ان هذه العوامل غير متساوية التأثير في عموم المشركين بحيث جعل فرقاً بينهم ونوعهم فجعل فريقا افسدت عوامل الغفلة ملكات ادراكهم. وفريقا لم تؤثر عليهم تأثيرا اعمى واصم فان قيل هل اقتضى نظم الاية هذا المعنى ؟ قلت نعم ان البيان السابق كان مفاده ان حجة القرآن بالغة تؤثر على النفوس وتقود العقول عاد لبيان وتفصيل المتأثر والغير المتأثر من النفوس وبهذا الاعتبار تنوع المكلف وبناء على تنوعه بينت الاسباب وبعد ذلك حكم على الامم التي

افسدت الغفلة عقولهم وبين ان هذا الفريق غير صالح ليكون فردا من افراد المجتمع الفاضل لانه مغمور في مطمورة الجهل فلا يصلح ان يكون فرداً من افراد المؤمنين لان العقول الفاسدة تأبى الاندماج بالمجتمع الفاضل وقد بينا سابقاً لماذا حكم عليهم وقد اوضحنا الاسباب الموجبة التي اشارت اليها الاية وبعد ان تم هذا التلويح والبيان اراد ان يذكر الفريق الصالح اي الذي اقتطف من ثمرات الانذار والمستفيد من حجج القرآن فقال (انما تنذر من اتبع الذكر) واراد بيان الامة التي يمكنها ان تستفيد من الحجة البالغة وتستنير بنورها والمعنى انما يكون الانذار نافعاً اذا تأملت الامة في الايات فحينئذ يتحقق منافع الانذار، فتلخص من مجموع ما ذكرنا ان ما به التخاطب امران الاول ان ارسال الرسول اثمر وكان باعثاً للحياة الاجتماعية وحافظاً للبقاء لان النفوس المستفيدة والعقول المدركة انقادت وكان انقيادهم باعثاً للحياة . والثاني دفع ما يخطر في الخيال من ان الانذار لو كان حجة بالغة لأثر في النفوس عموما . فالاية بينت ان التخلف في بعض الافراد وعدم التأثير فيهم لفساد مدركاتهم فكان هذا بيانا اقتضاه ما تقدم من الايات وتفصيل ما كان مجملا ليندفع ما يتوهمه السامع فالاية وردت لدفع ما تمركز في عقول الغافلين من ان الحياة والسعادة هي عبارة عن الاحوال الحاصلة في هذه الدنيا وليس وراء ذلك سعادة ولا شقاء لان الغافلين يرون اعادة المعدوم محالا وحسابه وعقابه غير ممكن لان الاحاطة بالاعمال بعد فنائها بعيد عن التصور لانها تفنى وليس لها وجود مستقل وكذلك يرون اجزاء البشر وماهيته تنقلب ترابا فالاعادة غير ممكنة فالاية ازالت هذه الاوهام وبينت انه ليس على الله محال فقال (انا نحن نحي الموتى ونكتب ما قدموا واثارهم وكل شيء احصيناه في امام مبين) بدء الكلام بضمير المتكلم اهتماماً بازالة الشبهة

و بيانا بان الموعد باعادة المعدوم هو الله تعالى وحده فلا يعسر عليه حال ودفعاً لاصرارهم وما توهموه عاد الضمير تأكيداً فقال بعد انا نحن

ثم بين ان الافعال والاعمال التي يفعلها الانسان في الحياة الدنيا تكتب مضبوطة محصاة في خزاين علمه اي في اللوح المحفوظ الذي احاط بما كان او سيكون وحاصل معنى الاية ان الله يعيد الخلايق تارة اخرى و يعاملهم حسبما كانت اعمالهم في الحياة الدنيا فان قيل قد سبق قبل هذا ان في الاية اشارة الى اعادة المعدوم فما هي الاشارة ومن اين لوحظت قلت ان قوله تعالى (فبشره بمغفرة واجر كريم) هذا التفريع نتيجة ما يحصل من اتباع الذكر و بيان لما يكون من الانقلابات الروحية والاخلاقية ثم ان اسلوب البيان يفيد ان الاعراض عن اتباع الذكر يولد مفاسد الاخلاق و يطمس على الفضائل واتباعه يزيل منها تلك المفاسد و يمنحها روحا قدسية خلفا عن تلك الملكات الرديئة

ولا كلام في ان قوله تعالى (فبشره بمغفرة واجر كريم) معناه والمراد منه ان حصول المغفرة انما يكون و يتحقق في الدار الاخرة ولما كانت مسئلة الاخرة مما لا يسلمها المشركون بينها تعالى بقوله نحن نحيي الموتى و نكتب ما قدموا و آثارهم وكل شيء احصيناه في امام مبين فانتقل ما به التخاطب الى اثبات ما ينكره المشركون وصور لهم ان ما توهموه لا حقيقة له بل هو في دائرة امكانه تعالى وانه ليس على الله محالا ثم ان الايات مترتبة على وجه اعجز بيانه لانه بين الفضايح التي تنتجها الغفلة والسعادة التي تظهر وتتحقق باتباع الذكر فالاولى بينت تلوحاً والثانية منطوقاً

﴿ مبحث في وجه الاعجاز في هذه الاية ﴾

اعلم ان الكلام تابع لما به التخاطب فمفهوم ما به التخاطب في هذه الاية (هو بيان حقيقة غير الحقيقة التي بينتها الايات السابقة) فاقتضى الكلام ان يأتي على طريق الفصل لا الوصل كما في قوله تعالى انما تنذر من تبع الذكر وخشي الرحمن بالغيب لان البيان هنا غير البيان فيما سبق من الايات وكذلك قوله تعالى انا نحن نحي الموتى ونكتب ما قدموا واثارهم وكل شيء احصيناه في امام مبين والمفاهيم اذا تغايرت يقتضي ان تكون التراكيب منفصلة لا موصولة لان هذا الاسلوب قرينة على اتصال الجملة اللاحقة بالجملة السابقة واسلوب الفصل يفيد عكس ذلك والمتكلم اذا اراد افهام المخاطب قصة او موعظة او غير ذلك يلزمه ان يؤدي المعاني بتراكيب تناسبها ملاحظا فيها نظما يفيد الانتقال من بيان الى بيان وفي هاتين الايتين وردت آية انما تنذر على سبيل القصر منفصلة اشارة الى انتقال ما به التخاطب لبيان ان منافع الانذار انما تتحقق باتباع القرآن وكذلك قوله تعالى انا نحن نحي الموتي ورد على طريق الفصل بيانا لانتقال ما به التخاطب وذكر ضمير المتكلم بارزا اشارة الى انه معروف بسعة القدرة ومؤكداً لدفع شكوك المتوهمين كما مر بيانه

(مبحث في تحليل الاية) ان الضمير الواقع في فبشره عايد الى قوله من اتبع الذكر وجملة وخشي الرحمن جملة معطوفة على الصلة ويجوز ان تكون الواو في قوله تعالى وخشي الرحمن حالية والمراد باتباع الذكر القرآن والبرهان وانما بحث في هذه الاية عن الاعادة بعد الموت

لان البشر تخيل انه لا حياة بعد الموت ولا سعادة الا في هذه الحياة فهذا الوهم

والخيال صار سبباً لانكار الرسل ظنا منه ان الايجاد بعد الموت غير ممكن لان جمع هذا العالم تارة اخرى محال لم يفهم سعة قدرته تعالى فكان ذلك الادراك والتوهم باعثا لانغماسه في الغفلة فبحث عن اعادة المعدوم مخـــبراً بان الحياة بعد الموت امر واقع ارشاداً و بيانا للحقيقة

فقال تعالى (انا نحن نحي) الخ .. بدأ الكلام بالضمير البارز اشارة الى انه معروف بانه قادر على كل شيء وانه يتصرف في ملكه كـــيف يشاء

فتبين ان هذه الاية وردت لدفع ما كان في عقليـة الغافلين من ان الحياة والسعادة هما عبارتان عن الاحوال الحاصلة في هذه الدنيا وليس وراء ذلك سعادة ولا حساب ، ثم ان الغافلين انما تصوروا محالية الحساب والعقاب لان الاحاطة بالاعمال غير ممكن ولانها اعراض تفنى وليس لها كون و وجود ، كذلك الانسان لا يعاد ما دام يبلى و يتجزى و تنقلب اجزاؤه ترابا

وقال تقريباً لعقولنا (انا نحن نحي الموتى) ذكر الكلام بضمير نفس المتكلم مؤكداً وهو نحن اظهاراً لعظمة شأنه تعالى ودفعاً للشكوك اللابدة في عقولهم بان الاعادة محال ثم بين ان اعمالهم وما فعلوه في الحياة الدنيا تكتب مضبوطة محصاة في خزاين علمه و فى اللوح المحفوظ

فحاصل معنى الاية — انه تعالى يعيد البشر و يحاكمه فى الحيـاة الثانيـة فيكافيه على اعماله المحفوظة المكتوبة فان كانت موافقة لامره كوفيء عليها وان كانت مخالفة جوزى عليها وقد بينا فيما سبق قبل هذا ان فى الاية اشارة الى هذا

واذا لاحظنـا نظم الكلام نجـد الترتيب محكما لان العلايق بين اللاحق والسابق شديدة الاتصال

ثم اعلم ان المتكلم اذا اراد ان يحذر عن امر يوجب الشقـاء او يرغب فى

امر يوجب السعادة فالبيان فى مثل هذا تابع لمقتضى الظاهر وهو تارة يعلل بالاسباب الموجبة التي يحصل منها مفاسد كما فى قوله تعالى (ولا تقربو الزنا انه كان فاحشة وساء سبيلا وكما فى قوله تعالى ان الصلاة تنهى عن الفحشاء والمنكر ففي هاتين الايتين نهي عن الزنا وعلله بما يحصل من اثاره ورغب فى الصلاة وبين الاسباب الموجبة ايضاً بما يحصل من اثارها وفقال فى الاول انه كان فاحشة وساء سبيلا والثانية) تنهى عن الفحشاء والمنكر وتارة تذكر الاثار وتجعل علة باعثة لوجودها كما فى هذه الاية فانه ذكر الاثار الحاصلة معللة بقوله فهم غافلون ملوحاً بان انكار القرآن والرسول ناشئ عن الغافلة وبعد ان حذر باسلوب بديع عن الغفلة بين ما يترتب علي أيتاع الذكر والنفوس المستفيد المستفيضة فقال فبشره بمغفرة واجر كريم فهو نتيجة رتبت على ايتاع الذكر والخشية بيانا لمنزلته وتمييزاً له عن غيره من المشركين كما ميز المعترضين بقوله تعالى لقد حق القول على اكثرهم فكان الترتيب بديعاً عقد نظمه معجزاً وبعد بيان حال الفريقين ذيل تذيلا عاماً للمصممين على الكفر ترهيباً وترغيباً واضاف الى ذلك ما يدل على الغاية من الايجاد وما هو المراد من الحياة

وصور كيفية تسجيل الاعمال والوقوف بين الملك العلام يوم يمتاز الحق من الباطل

فقال تعالى (انا نحن نحى الموتى ونكتب ما قدموا واثارهم وكل شئ احصيناه فى امام مبين)

بيانا لما هو مقرر فى عالم الازل وتفصيلا لما يحصل من النتايج والاحكام

واخرج ابن حاتم عن جرير بن عبد الله البجلي قال قال رسول الله صلى الله عليه وسلم من سن سنة حسنة فله اجرها واجر من عمل بها من بعده من

من غير ان ينقص من اجورهم شيئاً ومن سن سنة سيئة كان عليه وزرها ووزر
من عمل بها س بعده لا ينقص من اوزارهم شيئاً ثم تلا (ونكتب ما قدموا
واثارهم) وعن انس انه قال في الاية هذا في الخطو يوم الجمعة وفسر الاثار
بعضهم بالخطا الى المساجد مطلقا لما اخرج عبد الرزاق وابن جرير وابن
المنذر والترمذي عن ابي سعيد الخدرى قال كان بنو سلمة في ناحية من
المدينة وارادوا ان ينتقلوا الى قرب المسجد فانزل الله انا نحن نحيي الموتى
ونكتب ما قدموا واثارهم فدعاهم الرسول عليه الصلاة والسلام فقال انه تكتب
اثاركم ثم تلا عليهم الاية فتركوا — واخرج الامام احمد فى الزاهد وابن ماجه
وغيرهما عن ابن عباس قال كانت الانصار منازلهم بعيدة من المسجد فارادوا
ان ينتقلوا قريباً من المسجد فنزلت ونكتب ما قدموا واثارهم فقالوا بل نمكث
مكاننا فنقول فى تحقيق هذا ان الاثار لا يجوز ان تكون هي الخطا لا غير
وقصارى ما فى القول ان الخطا هي مما يصدق عليها الاثار صدق العام على
الخاص نعم انها من افراد الاثار وليست هي الاثار لوجهين الاول ان سوق
الكلام متوجه الى ان عموم الاثار تكتب لا نوع واحد الذي هو الخطا
والثاني انه لا يجوز قصر العام على الخاص فى موقع التعميم — ثم ان هذين
الخبرين يدلان على ان الاية مدنية وقال ابو حيان ليس ذلك زعماً صحيحاً

ولكن قول ابي حيان ليس بمرضي لان الحديثين السابقين ظاهران فى ان
الاية نزلت يومئذ وليس فى حديث الصحيحين ما يعارض ذلك وقبل ما
قدموا من النيات واثارهم من الاعمال وقالوا الظاهر ان المراد بالكتابة فى
صحف الملائكة الكرام الكاتبين — والتحقيق ان النيات عفى عنها فلم تكتب
ثم انه قد سبق ان المراد بقوله (فى امام مبين اللوح المحفوظ كما هو المروي

عن قتادة ومجاهد انه تعالى قد احصا كل شيء فيه واذا قلنا ان الاعمال والاثار يكتبها الكرام الكاتبون هلا يكون تنافياً بين البيانين اذا قلنا هناك انها ثابتة فى اللوح المحفوظ أليس ينافى قولنا انها فى صحف الكرام الكاتبين

قلت ان المراد بالكتابة هو كناية عن استقراء الاعمال والاثار بواسطة الملائكة الكرام كانها مضبوطة مسجلة وهذا الضبط والتسجيل محفوظ فى اللوح المحفوظ وحاصل المعنى انه تعالى يعلم ما كان وسيكون بحيث لا يشذ عنه شيء فكل محصا فى علمه فلا يعزب عنه شيء جل جلاله فما يصدر متفرقا فهو يتكون ويكون مجموعا بعلمه الازلي فالاية صورت ان ما يقع منا من الافعال سواء كان حسناً او سيئاً فهو مضبوط ومعلوم ثم ذلك يكون مجتمعاً ولا شبهة ان هذا البيان يفيد ترغيباً وترهيبا (وكل شي) من الاشياء كائنا ما كان والنصب على الاشتغال اي واحصينا كل شيء (احصيناه) اي بيناه وحفظناه واصل الاحصاء العد ثم تجوز به عما ذكر لان العد لاجله (مبين) مظهر لما كان وسيكون وهو عبارة عن اللوح المحفوظ واللوح عند المسلمين جسم متناه الابعاد وقال البعض انه ياقوتة حمراء والثاني زمردة خضراء وذهب المحققون من العلماء بان ذلك مما لا جزم فيه وعندي انه ليس سوى علمه تعالى وتصور انه من الزمرد وياقوتة غير معقول ويستلزم وجود مالانهاية له مظروفا فى ما يتناهى

مبحث فى حاصل معاني هذه الايات

اقتضى ان نبحث عن معانيها ونفصلها تقريباً للاذهان فنقول ان مفهوم ما به التخاطب قد يتنوع ولكن المجموع يرمي الى غاية متحدة هو ارشاد الامة الى مقتضيات الحياة التي لا تتحقق الا بواسطة الرسول والقرآن

النوع الاول — انه تعالى بين ان محمداً رسوله مؤيداً بالقرآن الحاكى عما كان فى التعيينات الازلية التي ظهرت بالمظاهر المحمدية حتى صارت تلك المظاهر كاشفة لمحتويات ما كان مقرراً فى علمه الازلي

كما هو المفهوم من قوله تعالى (يس) والقرآن الحكيم انك لمن المرسلين) الاية النوع الثاني — انه تعالى خاطبه مبيناً الاسباب الداعية لارساله ونوه على تلك الاسباب بانها ردأة الملكات وانغماس النفوس بالجهل فكان ذلك باعثاً لاصرارهم واستمرارهم على العناد كما هو المفهوم من قوله تعالى (لتنذر قوماً ما أنذر اباؤهم فهم غافلون) ومضمونه انك مرسل لامة اعرضت عن مقتضيات الحياة واستمرت مصرة على العناد فارسلناك لترشدها وتوقظها من الغفلة وتهديها الى الصراط المستقيم الذي هو منهاج السعادتين فيكون الانذار عبارة عن تطورهم باجتماع فاضل والاعراض عن الاجتماع والحياة التي هم فيها مشيرا الى ان الارشاد لا يؤثر على الكثير منها المستولى عليها الغفلة وقد سلبت عقليتها فهؤلاء ينفرون منك ويعرضون عن دعوتك منكرين لرسالتك وللقرآن فانت لا تحزن ولا تأسى وبعد ان علل بين الحكم المقرر على هؤلاء ومن يكون على شاكلتهم بأنهم لا يؤمنون والغاية من ذلك الحكم انهم محكوم عليهم بالعذاب الابدي

النوع الثالث — انه تعالى لما بين الرسول وبين احوال المرسل اليهم بدأ فى تفصيل احوال الأمم التي تستفيد من الارشاد والتي لا تستفيد منه

لما هو المفهوم من قوله تعالى (لقد حق القول على اكثرهم فهم لا يؤمنون) فان الاية تتضمن ان الارشاد والانذار لا يؤثر فى الكثير من قريش فيكون الارشاد متنوعاً ارشاداً مثمر وارشاداً غير مثمر اما الارشاد

المثمر فهو يحصل فى النفوس المستفيدة التي تتبع الذكر وغير المثمر يتحقق فى النفوس المغموسة فى الجهل والاعراض عن الذكر كما هو المستفاد من قوله تعالى (انما تنذر من اتبع الذكر وخشي الرحمن بالغيب)

النوع الرابع — انه تعالى بعد ما بين انواع الارشاد واحوال المسترشدين اقتضى بيان الاحكام التي تترتب على الفريقين كما هو المفهوم من قوله تعالى (فبشره بمغفرة واجر كريم) وبعد ذلك ذكر ما يدل على قدرته تعالى وتفرده فى الايجاد فقال (انا نحن نحيي الموتى ونكتب ما قدموا واثارهم وكل شيءٔ احصيناه فى امام مبين) اي انه يوجد العالم بعد موتهم ويحاسبهم ويجازي المحسن على احسانه والمسيءٔ على اسائته

مبحث فى اعجاز هذه الاية

اسلوب البيان فى قوله تعالى انما تنذر من اتبع الذكر جاء على طريق الفصل بيانا الى ما بين الانذارين من الفرق فان الاول عام والثاني خاص الا ان هذا التخالف انما كان باعتبار قبول المنذرين وعدم قبولهم فانه لم يلاحظ فى الاول ما كان من نتيجة الانذار بخلاف الثاني وذكر على طريق القصر بيانا لتحقق منافع الانذار فيمن اتبع الذكر وبعد ان بين حال المعاندين عطف بالفاء بيانا لنتيجة ما يحصل من الحالين

قال تعالى (واضرب لهم مثلا اصحاب القرية اذ جاءها المرسلون اذ ارسلنا اليهم اثنين فكذبوهما فعززنا بثالث فقالوا انا اليكم مرسلون)

هذا من قبيل عطف القصة على القصة او عطف على مقدر اي فانذرهم واضرب لهم مثلا والأول اولى وعبارة صاحب الكشاف والقاضي يظهر منها انه من قبيل عطف القصة على القصة وبعد ما بين تعالى عوامل الغفلة

وتأثيرها واوضح حال الغافلين بقوله (انا جعلنا في اعناقهم) (الاية) ذكر البيان ثانيا على طريق المثل تسلياً للمخاطب وضرب المثل يستعمل تارة في تطبيق حالة غريبة باخرى مثلها كما في قوله تعـاله (ضرب الله مثلا للذين كفروا امرأة نوح) الاية واخرى في ذكر حالة غريبة وبيانها للنـاس من غير قصد بتطبيقها بنظير لها كما في قوله تعالى (وضربنا لـكم الامثال) فالامثال هنا بمعني بينا لـكم احوالا بديعة هي في الغرابة كالامثال و يكون المعنى على الاول الفات نظرهم والاعتبار باحوال الامم الماضية اي اجعل الامم الماضية مثلا فان قيل لماذا ضرب هذا المثل قلت للايقاظ و بيان الامم المتغلغـــلة بالـكفر وتسلية للرسول قال تعـالى (اذ جائها المرسلون) الضمير عائد الى اصحاب القريه والمعنى جاءها الهادون المرشدون في مقرهم ليرشدوهم الى صالح الحياتين و يهدوهم الى مناهج السعادتين والمراد بالقرية هي انطاكيه

قال تعالى (فكذبوهما) وكان من اللازم ان يذعنوا و يؤمنوا بهما ولـكن اعرضوا عنهما و لم يتبعوا قولها ولا آثارهما لان النفوس اذا انغمست في الغفلة وفسدت المدارك العقلية لا يمكنها ان تدرك الحقايق ولا الفضائل فتكذب الرسل — كما هو المفهوم من قوله تعالى (اذ ارسلنا اليهم اثنين) فان المتأمل في اسناد الارسال الى ذاته تعالى يجزم بان المرسلين جآء بما يقتضي ان يذعن به لان المرسل لما كان هو الله فالرسالة تكون حكمة باهرة تلم بالحياة وتتكفل بالسعادة — الا ان اصحاب القرية لم يلتفتوا اليها لان حجب الغفلة منعتهم من ادراكها فيكون قوله تعالى فكذبوهما بيانا لاثار الغفلة وفواعلها في النفوس وحكاية عن خبثها وفي ذكر اثنين ايضاً بيان لاصرارهم — قال ابن عباس و كعب هم رسل الله واختاره بعض الاجلاء وادعي ان الله ارسلهم تقريراً

لشريعة عيسى كهار ون لموسى عليهما السلام وايد دعواه بظاهر اذ ارسلنا اليهم اثنين وقول المرسل اليهم مـا انتم الا بشر مثلنا اذ البشرية تنافي على زعمهم الرسالة من الله لا من غيره سبحانه — واستدل البعض على ذلك بظهور المعجزة كابراء الاكمه واحياء الميت على ايديهم والمعجزة مختصة بالنبي على ما قرر بالكلام وذهب البعض الى انهما رسل عيسى عليه السلام وهما يوحنا و بولس وقال مقاتل توما و بولس وقال شعيب الجبابي وشمعون و يوحنا وقال وهب و كعب صادق وصدوق وقيـل نازوص ومـازوص وهـذا الخلاف حصل من عدم ضبط الحقيقة التاريخية والتحقيق ان الرسل هم رسل الله تعالى ارسلهم الله الى انطاكيه ليقرروا لهم شريعة عيسى ثم اذا تأملنـا في التخالف بين الضميرين الاول فى قوله تعالى اذ جاءها والثاني في قوله تعـالى (انا ارسلنا اليهم اثنين) نجد التخالف يشير الى معان . الاول انه تعالى من عليهم فارسل لهم رسلا يرشدونهم وهم فى منازلهم وقد كانوا هم احق بالسعي اليهم والاقتباس من معالم علومهم والاستهداء بهداهم — والثاني بيان ان الرسولين وصلا الى القرية التي هي مقرهم وسكناهم

وتصوير هده المعاني يقتضي الاختلاف في الضمائر فقال تعالى اذ جاءها المرسلون ولمـا اراد بيان معنى ان الارسال كان لكل فرد فرد قال اذ ارسلنا اليهم اثنين بضمير الجمع بيانا الى ان الارسال الى اصحـاب القرية باعتبار مجموعهم من الافراد — قال تعـالى (فكذبوهما) التكذيب قد يكون مبينا على ان اصحاب القرية منكرين لوجود اله او باعتبـار انكارهم لوجود الرسالة فعلى الاول يكون تكذيب اصحاب القرية عائدا لنسبة الارسال بناء على انهم انكروا وجود الله وايضاحه كانهم قالوا الله ارسلنا فاجابهم اصحاب

القرية بانه لا وجود للاله فلا ارسال فالتكذيب بنى على انكارهم لله تعالى وعلى
الثاني يكون التكذيب بناء على انهما ليسا رسالا الاله لانه لا حاجة لوجودها
قال تعالى (فعززناهما بثالث) اي قويناهما بثالث اي برسول ثالث يؤيد ماعليه
الرسولين واشار بذلك الى انهما تأيدا بقوة لا تغلب وعلى ما روى عن ابن
عباس هو شمعون الصفا و يقال سمعان ايضاً وقال وهب و كعب شلوم وعند
شعيب الجبائي بولص — وقرأ الحسن وابو حبوة وابو بكر والمفضل وابان
فعززنا بالتخفيف وهو والتشديد لغتان كشده وشدده والمعنى واحد وقال ابو
علي المخفف من عزه اذا غلبه ومنه قولهم من عزيز اي غالب و معناه فغلبناهم
بحجة ثالثة وقرأ عبد الله بالثالث (فقالوا) عطف على فكذبوهما فعززنا
والفاء للتعقيب اي فقال الثلاثة بعد تكذيب الاثنين والتعزيز بثالث (انا
اليكم مرسلون) لنرشدكم الى ما هو الصالح من الحياة ونعلمكم ما هو الاولى
فى انتحاب لوازم السعادة ولنخرجكم من هذه الضلالة الى نور الهدى —
(قالوا انما انتم بشر مثلنا وما انزل الرحمن من شيء) هذا رد لدعوى انهم رسل
من الله مستند على الدليل على زعمهم وتقريره انكم تدعون ان الله ارسلكم الينا
وليس لكم مزية علينا موجبة لاختصاصكم بالرسالة فجعلوا كونهم بشراً مثلهم
دليلا على عدم الارسال وهذه حجة يعتمد عليها عامة المشركين اذ قالوا فى
حق محمد (أأنزل عليه الذكر) وقد ظنوه دليلا بناء على انهم لم يعتقدوا في الله
الاختيار وقالوا انه موجب بالذات وقد استوى فينا البشرية فلا يمكن الرجحان
والله رد عليهم بقوله تعالى (الله اعلم حيث يجعل رسالته و بقوله (يجتبى اليه
من يشاء) قال تعالى (ان انتم الا تكذبون) هذا تصريح بما قصدوه من
الجملتين وبيان ما انطوت عليه سرايرهم — قال تعالى (قالوا ربنا يعلم انا اليكم

لمرسلون) اي المرسلون استشهدوا بعلم الله تعالى وهو جار مجرى القسم في التأكيد والجواب بما يجاب به قال تعالى (وما علينا الا البلاغ المبين) اي نحن مرسلون من الله تعالى وليس علينا الا تبليغ ما امرنا به

وقد بلغناه طاهراً بينا بحيث لا يخفى على سامعه ولا يقبل التأويل والحمل على خلاف المراد اصلا وقد خرجنا من عهدته، فلا مؤاخذة علينا من جهة ديننا ويجوز ان يكون معنى مبين قد جائنا ببيان مؤيد بالمعجزات التي تفيد اليقين

فتلخص من هذه الايات ان في ضرب المثل تفصيل ملكات النفوس والعوامل المؤثرة ليعلم المخاطب ان البشر ليس له ادراك انتخاب الاصلح الا بعد عناء وارشاد وانه يأبى التفاضل عليه ويتعامى عن الفضيلة ان وجدها في غيره بل يعارضه ويماحقه داحضا لحجته مهما بلغت من الحكمة وفصل الخطاب وان تهذيب اخلاق البشر وتكامل ادراكاته لا يكفيه البيان البليغ مهما بلغ من الاتقان بل يقتضى ان ينضم اليه المزاولة والتكرار والصبر على معارضة النفوس السافلة والاراء الساقطة كما هو المفهوم من الاية اذ ذكر المثل حاكيا عن معارضاتهم ليدرك المخاطب سقوط ارائهم وبرهانهم الذي استندوا عليه وجعلوه مناطا للحكم عليهم بالكذب وظنوا ان المماثلة في البشرية هى عبارة عن الصور النوعية لا عن تكامل النفوس واتصالها بالعالم اللاهوتي ولا سيما وقد جهلوا التعينات الازلية وسلبوا حق الانتخاب من الله

فتلك الظنون هى التي اردتهم فعلى هذا يكون ضرب المثل موعظة واعتبارا من جهة وتسلية وترغيب الرسول عليه الصلاة والسلام من جهة اخرى

مبحث فى بيان ما في هذه الاية من البدايع والاعجاز

بيان اعجاز هذه الاية يحتاج الى تمهيد مقدمات وملاحظات ذكرناها في كتابنا المسمى باكمال بلاغة العرب

الاول ان الكلام لا يذكر الا لغاية يتوجه اليها على ان يكون سواها مرفوض ومطروح والغاية في قوله تعالى (واضرب لهم مثلا اصحاب القرية اذ جاءها المرسلون) تسلي المخاطب وترغبه في الصبر والثبات وان كان معارضا مهضوم الحقوق — والبلاغة تقتضي في مثل هذا تفصيل حال المعارضين وبيان فساد ملكاتهم الروحية واخلاقهم السافلة وعدم تكامل ادراكاتهم العقلية — وبيان حال المخاطب او بيان حال من يماثله حسبما يقتضيه سوق الكلام — وبلغاء العرب ذكروا مثل هذا الكلام في اشعارهم وجاؤا منه بانواع كثيرة — ولكن لم يتمكنوا ان يأتوا بكلام تضمن من المزايا ارفعها كما في هذه الاية حيث ذكر الكلام اولا مجملا يحتوي على عنوانين يشير باحدهما الى احوال المعارضين ورداة ملكات عقليتهم وبالثاني الى كمالات المرشدين الهداة وعبر عن المعارضين باصحاب القرية ليفهم المخاطب انهم في اشد الاحتياج الى الارشاد والتعليم لجهلهم وعبر بلفظ المرسلين مشيرا الى تناهيهم في الكمالات العقلية وتساميهم في الارشاد فاحاط المخاطب مبدئياً علما اجماليا بحال المرسل والمرسل له وعلم ان المرسل له تناهى في الجهالة وان المرسل تناهى في الكمالات وبعد ذلك اعقب هذا الاجمال تفصيل حال المرسل قال تعالى اذ ارسلنا اليهم اثنين فكذبوهما فهذا التكذيب الغير المنتظر افاض على عقلية المخاطب الحيرة واوقع فى نفوسهم الدهشة

لان اللازم على اصحاب القرية معاضدة الرسل وتأيدهم لا تكذيبهم فالاية لما بينت اعراضهم عن هذا اللازم ادرك المخاطب ان ارشاد مثل هـذه الامة يقتضي عناء وصبراً على مكافحتهم وتكميلا للتسلية ذكر بعد ذلك (وجاء من اقصى المدينة رجل يسعى) عبر هنا عن تلك القرية بالمدينـــة مشيراً الى التكامل العلمي الذي حصل بمسعى الرسل والى انهم جعلوا انقلابا عظيما في بلدة واسعة حتى جاء الرجل مؤيداً ما عليه الرسل فذكر اقصى المدينة يرغب المخاطب عليه الصلاة والسلام في الصبر ببيان ما كان من نتائجه — واذا لاحظنا ما في الاية من حسن الاسلوب نجده الفت النظر وايقظ المخاطب وسلاه ببيان يسيل من ينابيع الحكمة فيقيم لنا الحجة ويصورها كانها محسوسة ملموسة اذ صورت حالة الرسل وما لاقوه من الاهوال وكان هذا مع جماعة من الرسل فوقع على النفوس احسن موقع لا سيما وقد حوى نظم الايه في التصوير ما يحكى عن حالة المعارضين واصرارهم وكان البيان مع ايجازه كانه بيان يفصل الوقعة باطناب واسع مع مراعات مقتضى الظاهر اذ أكد في موقع التأكيد وحسبما يقتضيه الحال وبنى ضرب المثل على قصة ووقعة تاريخية ذكرها باسلوب مجمل اعقبه بتفصيل استوفى كل كلام ما يستحقه من مقتضيات البلاغة فان قوله تعالى (واضرب لهم مثلا اصحاب القرية اذ جاءها المرسلون) مجمل وقوله اذ ارسلنا اليهم اثنين فكذبوهما تفصيل ذكر على سبيل البدلية ليفيد تأكيداً واشار الى شدة اصرارهم وتكذيبهم بقوله تعالى (فعززنا بثالث) يؤيد الاثنين (فقالوا انا اليكم مرسلون) فقالوا اي الثالثـــة بعد تكذيب الاثنين بما يؤكد رسالتهم انا اليكم مرسلون جاء هنا بما يدل على التأكيد لان الموقع موقع الشك لان المخاطب ليس خالي الذهن

فكأن الرسل قالوا لهم انا ارسلنا اليكم لنرشدكم فرد عليهم المشركون حيث قالوا لهم انتم لستم رسلا فقالوا عقيب تكذيبهم انا اليكم مرسلون) مع التأكيد — ولما سمع المشركون ذلك عادوا عليهم عودة المستدل على ابطال الدعوى (قالوا ما انتم الا بشر مثلنا وما انزل الرحمن من شيء ان انتم الا تكذبون) جاء اسلوب الكلام بالجملة الاسمية مقرونا بما يدل على اصرارهم من التأكيد المبني عن عنادهم الا ان الرسل لم يتأثروا تأثر الايس من الاصلاح فلذلك عادوا عليهم الارشاد مع بيان بطلان ما استدلوا به واضافوا التأكيد لانهم رأوا المحاورة مع معاندين فقالوا (ربنا يعلم انا اليكم لمرسلون) للرد على مقدماتهم التي ذكروها فيكون المعنى انا رسل من الله بلا شك ولا شبهة ارسلنا لنهديكم واما قولكم كيف ارسلنا فليس من المسائل التي يعود تقديرها اليكم بل يعود تقديرها الى الله الذي ارسلنا فهو يعلم كيفية ارسلنا ذكر تعالى هذه المحاورة لبين ما كانت عليه الامم في الادوار الماضية بياناً يوضح لنا رداءة اخلاقهم وانغماسهم في الشهوات ويبين مفاسد ملكات نفوسهم وقدرة تعقلهم في انتخاب ما هو الصالح الا ان البيان افادنا شدة احتياج البشر للرسل بحيث لا يلتم نظام اجتماعي الا بوجودهم وهذا المعنى يظهر للمتأمل في الايات ولاسيما قوله تعالى (وما علينا الا البلاغ المبين) وورود الايات على سبيل التأكيد يتضمن الاشارة الى ان كلا من الرسل والمرسل له مصر على مباديه الا ان الكلام الحاكي عما قاله الرسل جاء في غاية التأكيد لمبالغة الكفرة في الانكار حيث اتوا بثلاث جمل وكل منها دال على شدة الانكار قال السكاكي أكد في المرة الاولى لان تكذيب الاثنين تكذيب للثالث باعتبار اتحاد المقالة فلما بالغوا في تكذيبهم زادوا في التأكيد

وللعلامة الزمخشري هنا تفصيل اذ قال فان قيل لم قال انا اليكم مرسلون اولا) وانا اليكم لمرسلون) آخراً (قلت) لان الاول ابتداء اخبار والثاني جواب عن انكار وقوله (ربنا يعلم جار مجرى القسم)

ولكن يرد عليه انه ليس ابتداء اخبار لانه كلام وقع بعد تكذيب فاجاب السيد السند فى شرح المقتاح وقال ان قوله ابتداء اخبار نظراً الى ان مجموع الثلثة لم يسبق منهم اخبار فلا تكذيب لهم فى المرة الاولى ينحل التأكيد فيها على الاعتناء والاهتمام منهم بالخير

وقال اجل المحققين السلكوتي رحمه الله وفيه ان الرسل الثلثة كانوا عالمين بانكارهم والكلام المخرج مع المنكر لا يقال له انه ابتداء اخبار وقال صاحب الكشف ان المراد انه غير مسبوق باخبار سابق ولم يرد انه اخبار مع خالي الذهن والمحقق الجلبي ذهب انه بمنزلة ابتداء اخبار بالنسبة الى انكارهم وقال المحقق اليميني انما اكد القول الاول لتنزيلهم منزلة من انكر الرسل الثلاثة لانه قدلاح ذلك من انكار الاثنين فعلى هذا يكون ابتداء اخبار بالنظر الى اخراج الكلام على مقتضى الظاهر وانكار بالنظر الى اخراج الكلام لا على مقتضى الظاهر فنظر السكاكى ادق من نظر الزمخشري

قال اجل المتأخرين العلامة عبد الحكيم السالكوتي عندي ان ما ذكره السكاكى مبني على عطف فقالوا انا اليكم مرسلون على فكذبوهما فعززنا والفاء للتعقيب فيكون الكلام صادراً عن الثلاثة بعد تكذيب الاثنين والتعزيز بثالث فكان كلاما مع المنكرين وقول الزمخشري رحمه الله مبني على انه عطف على اذ جاءها المرسلون وانه تفصيل للقصة اجمالا بقوله تعالى اذ جاءها المرسلون الى قوله فعززنا بثالث فالفاء للتفصيل فقوله تعالى فقالوا انا اليكم

مرسلون بيان لقول عز وجل اذ ارسلنا اليكم اثنين فيكون ابتداء اخبار صدر
من الاثنين قالوا بصيغة الجمع تقريراً لشان الخبر وقوله تعالى قالوا ما انتم الا
بشر مثلنا بيان لقوله تعالى فكذبوهما وقوله سبحانه (ربنا يعلم انا اليكم
لمرسلون) وما علينا الا البلاغ المبين بيان لقوله عز شأنه فعززنا بثالث فان
البلاغ المبين هو اثباتهم الرسالة ثم قال رحمه الله تعالى ولا يخفى حسن هذا
التفسير لموافقته للقصة المذكورة في التفاسير وملائمته لسوق الاية فانها
ذكرت اولا اجمالا بقوله واضرب لهم مثلا اصحاب القرية ثم فصلت بعض
التفصيل بقوله اذ جاءها المرسلون الى قوله سبحانه وتعالى فعززنا بثالث ثم
فصلت تفصيلا تاماً بقوله تعالى قالوا انا اليكم مرسلون الى قوله خامدون وعدم
احتياجه الى جعل الفاء في قوله فكذبوهما فصيحة بخلاف تفسير السكاكي
رحمه الله فانه يحتاج الى تقدير فدعوا الى التوحيد والله اعلم باسرار كتابه

ولما رأى اصحاب القرية قوة حجة الرسل لا تقارع ضاقت بهم الحيل
فرجعوا الى النفرت والاشمزاز جريا على ديدن الجهلة كما هو المحكى عنهم
بقوله تعالى (انا تطيرنا بكم) اي تشاءمنا منكم ووجه التشائم ان الرسل عندما
وصلوا انطاكيه وذكروا انهم رسل من الله تعالى ودعوا الناس ان يعتقدوا بهم
ويستمعوا لما جاؤا به حصلت حركة فكرية واهتم فريق من اصحاب اهل
القريه ان يصغوا الى ما يأمرون ويتبعون تعاليمهم الا ان الفريق المخالف
كان شديد الوطئة كثير العدد فضيق على الفريق الموافق ولم يترك له ملجأ
للتظاهر وحذراً من شيوع الامر ومظاهرة ذلك الفريق سدوا باب المحاورة
والاحتجاج ورجعوا الى ما يرجع اليه الجهلة (قالوا انا تطيرنا بكم)

وقال مقاتل انه حبس عنهم المطر — وقال آخر اسرع فيهم الجذام عند

تكذيبهم للرسل عليهم السلام والراجح ما قاله ابن عطية ان تطير هؤلاء كان بسبب ما دخل فيهم من اختلاف الكلمة وافتتان الناس — واصل التطير والتفاؤل بالطير البارح والسانح ثم عم وكان مناط التطير بهم مقالتهم كما يشعر به قوله تعالى (لئن لم تنتهوا) عن دعوى الرسالة (لنرجمنكم) بالحجارة او بالقول وقال قتادة وذكر فيه احتمالان احتمال ان يكون الرجم للقتل اي لنقتلنكم بالرجم بالحجارة واحتمال ان يكون للاذى والاول ارجح قال تعالى (وليمسنكم منا عذاب اليم) بيان للرجم والمعنى ولنكثر الرجم عليكم ونديمه الى الموت وهو عذاب اليم واليم بمعنى المولم والفعل بمعنى المفعل قليل

ذكرت هذه الجملة بعد لنرجمنكم بيانا لما كنت عليه ظمايرهم وما كان في نفوسهم من تأثير دعوى الرسل فيكون وليمسنكم منا عذاب اليم بيانا كاشفا لنرجمنكم اي لا يكون الرجم رجماً قليلا بل رجماً يكون باعثا للهلاك وهذا الكلام يفيدنا ان دعوى الرسالة اثارت في نفوس فريق تأثير المتأمل وكونت نتيجة حسنة كادت ان تجعل انقلابا اجتماعياً يوأدي الى افتراق الامم وحذراً من وقوع هذا الانقلاب انذروهم ولكن الرسل لم يتأثروا من ذلك الانذار ولم يلتفتوا الى ما يكون لان غايتهم تأيد الحقيقة وتبليغ ما امروا به فلا تعيقهم الموانع عن ما هم عليه (قالوا طائركم) اي سبب شؤمكم (معكم) لا من قبلنا كما تزعمون اي سوء عقيدتكم وقبح اعمالكم اي ان اصحاب القرية ارادوا انذار الرسل وكفهم عن دعوى الرسالة حفظاً لمراكزهم الاجتماعية والرسل حباً بالتكامل البشري كانوا مصرين على نشر الدين وبناء عليه لم يخضعوا حذراً من ذلك الانذار بل ردوه بأبلغ حجة فكانهم يقول لهم انتم تتطيرون من امر انتم واقعون فيه لان الكفر يؤسس في الامة الافتراق ويؤيد سيادة

الجبارين فيختل نظام الحياة بخلاف الدين فانه يجعل في النفوس حب الوحدة العامة بدون ترجح في الحياة فيا قوم تعالوا الى الدين تنجو مما انتم فيه من الافتراق والشقاق فانه يؤلف قلوبكم فيكون كلام المرسل جواباً يتضمن ارشاداً يوضح عقلية الامم النافرة عن الرسل بانها عريقة بالجهل كما هو المفهوم من قوله تعالى (أئن ذكرتم) هذا رد لقولهم وتسجيل عليهم بالفضيحة ومعناه اتفعلون الرجم والاهانة وان جاءنا كم بالبينة والبرهان - قال تعالى (بل انتم قوم مسرفون) والمعنى نحن لا نستحق الرجم لانا جانا بما يثبت دعوانا ويؤيد اننا رسل رب العالمين حيث جئنا بالمعجزة والبرهان فالواجب عليكم سماعها واتباعها فنحن لا نالسا كاذبين (بل انتم مسرفون) المسرف هو الذي يكون مفرطا ومفرطا والمراد هنا انكم ترجمونا بعد وضوح الحجة والبرهان المثبت لدعوانا وكان اللازم ان تنقادوا الينا وتتبعوا حجتنا وارشادنا لانكم تتشائموا منا ومن البديهي ان الرسل جاؤا بانظمة وشرايع تتكفل بالفرد وبالمجتمع ولا مرية انها تؤلف وحدة الحقوق في العالم البشر بخلاف ما عليه المشركون فان ذلك يؤلف تفرقة لان الكفر والشرك مؤسس لهدم العالم فعلى هذا يكون التشاؤم منكم والمراد بالاسراف الافراط في الكفر

الرسل صبروا على معارضة اصحاب القرية وتجلدوا على ما فعلوا معهم انتصاراً للدين وحفظا للمجتمع من الفناء لان الكفر هادم للبقاء والدين حافظ له فيكون بيان هذه الوقعة التاريخية من قبيل الفاة النظر الى ما كان البشر عليه في الادوار الماضية من جهة ومن جهة اخرى بيان ما قاساه الرسل من العناء وتزيف لمن توهم ان الدين خضعت له نفوس الضعفاء والعقول الساذجة بدون نظر وتعقل

مبحث فى بيان احتياج الناس الى الرسل

الاية صورت حقيقة الوقعة التي تكونت بين الرسل وبين اصحاب القرية مبينة ملكات نفوسهم وما فيها من الردائة بايجاز من البياب تضيف اليه رضاءهم بتلك الحياة التعسة حيث قالوا (انا تطيرنا بكم) اذ رؤا الارشاد المنجى من تلك الحياة مشؤم وهذا دليل على رضاءهم بحالتهم وجاء هذا البيان بالجملة الاسمية التي خبرها مضارع فافات التأكيد مع التجدد المتعاقب ما دام يدعون الرسالة ويرشدون الناس كما هو المستفاد من قوله تعالى لئن لم تنتهوا لنرجمنكم وليمسنكم منا عذاب اليم) ترتب الرجم ووقوع العذاب الاليم على تقدير عدم الانتهاء وعطف جملة (وليمسنكم عذاب اليم) بالواو دون الفاء اشارة الى انهم يعذبون بنوع آخر غير الرجم ـ فيكون مفاد الاية ان اصحاب القرية تطيروا من الرسل خوفا من تحويل الحياة الاجتماعية والارشاد الصالح للحياة وتبديل عقليتهم فالكهنة لما رأوا الامة متوجهة الى ارشاد الرسل ومنقادة الى تعاليمهم خافوا من انهدام عروش سيطرتهم لان هؤلاء الجبارين يرفضون الصالح وخشية منه عارضوا الرسل وناقشوهم

وليس هذا الحال خاصا بهؤلاء فحسب بل كل الجبارين لا يريدون الانظمة ولا يألفون الشرايع كما هو الثابت تاريخاً حذراً من ذهاب نفوذهم) وهذا الذي حملهم للمعارضة ولما كان السواد العظيم من البشر مؤيداً في تلك الادوار للجبارين انطوت حكم ارشاداتهم الملت فى الحياة زمنا فى اصرار الجاحدين وعنادهم ـ الا ان الحقيقة مهما اختفت لابد لها من ظهور وبروز تظهر بجلابيب جمالها عند ظهور الانوار المحمدية مؤيدة بالبراهين الفنية فاوضحت مسالك الحياة وخمرت الفكرة والروح الاجتماعية وارشدت البشر

الى حرية الحياة الاجتماعية — واذا تأملنا في عوامل هـــذا الارشاد نجده اثراً هاماً في تشيد دعائمها و مؤيداً للبقاء اذ حول البشر من ادواره المظلمة يوم كان يعيش وهو مقلد للشعور الطبيعي و محاولا ان يفوز فرداً مستقلا منعزلا عن غيره فلم ينجح — الى حياة اسست عــلى الاشتراك لا على الاستقلال ولما خالف البشر هذا الاشتراك انتج ذلك الحال ويلا و ثبوراً كاد ان يهدم العالم

النمو في العالم البشري بدئ بعد ارشادات الرسل لا قبله لان الحياة تقتضي حقوقا متقابلة تحتوي على توزع الحقوق متوازيا وليس في الامكان ان يكون ذلك في امة تقلد شعورها الطبيعي — لانه بني عــلى الحرية المطلقة والاختصاص بالحياة بخلاف الحرية الاجتماعية فانها اسست على الاشتراك فالامم في الادوار الغابرة كانت تتمشى نحو الحرية المطلقة و لا تميل الى شرع وقانون يحفظ حقوقها بل كانت في تنازع و معارك مبيدة تكاد ان تهدم الحياة

الرسل ارشدت البشر و علمته ان يدرك ان الحياة نتيجة الاشتراك الاجتماعي وليس في الامكان بقاء الحياة اذا انحلت العلائق الاجتماعية و ذلك مؤيد بالوقائع التاريخية اذ هلكت الامم التي كانت تقلد الشعور الطبيعي وفازت الامم التي كانت تابعة للشعور الاجتماعي المبني عــلي التضامن و التكافل الذين هما نتيجة تعاليم الرسل

اجل ما كان البشر مدركا ان الحيـــاة يمونها الاشتراك الاجتماعي والتوزيع العادل المتوازي بل كان شعوره ترجح الحياة الشخصية كما هو الثابت تاريخا و هذه مهلكة ما نجا منها الا بعد ان قلد الرسل و علم ان الحياة

انما تكون اذا كانت آدابه وشعوره اجتماعيا — لان الحياة لا تقوم بدون لوازمها وهذه اللوازم لا توجد بدون تعاون وتضامن فالنتيجة ان الحياة نتيجة التكافل الاجتماعي وقد اهتمت الرسل لذلك ومزقت قيوده التي كان فيها وارشدته ان يتفكر في الحرية الاجتماعية ويرفض الشعور الطبيعي فلما ارادت الرسل انقاذ البشر من تلك القيود عارضها الجبارون لان ارشادات الرسل تخالف ماهم عليه ولكن معارضتهم لم تؤثر شيئا والاوضاع التي سنها الله لا تغلب فتم امر الرسل وانمحت آثار الجبارين واذا اردت زيادة تفصيل طالع رسالتنا ماذا فعل الرسل

قال الله تعالى وجاء من اقصى المدينة رجل يسعى قال يا قوم اتبعوا المرسلين اتبعوا من لا يسألكم اجراً وهم مهتدون)

العطف يشير الى ان هذه الايه من متممات القصة وتبين حال المشركين وعنادهم واصرارهم وتقص علينا ان عقلية المشركين ليس فيها محاكات الفضيلة — ولا يمكنها ان تتصور خلاف ما تخيلته ومثل هذه العقلية تكون مصرة على ماضيها لا يمكنها ان تنتخب ما هو الصالح مهما بلغ وضوح الارشاد ثم اذا نظرنا الى جهة النظم نجد ان الرسل فازوا بتبليغهم اذ آمن بهم رجل عظيم من تلك المدينة يهمه امرهم وينصرهم في السراء والضراء ولما بلغه ان المشركين اهتموا ان ينالوا من الرسل ما يشفي صدورهم جاء من اقصى المدينة رجل مهتما بأمرهم وناصراً لهم وناصحاً لقومه ان ينتخبوا ماهو الاصلح فقال (اتبعوا المرسلين) أمرهم بالاتباع لانه الصالح للحياة فانتخابه يكون سببا للنجاة ومخالفته يكون سببا لهلاكهم — ثم عاد واكد نصحه وارشاده ببيان ان

هؤلاء بلغوا من المواهب اللدنية اقصى الكمالات فهم هداة علموا مناهج الوصول الى التكامل في الحياة واتباعهم لازم

والظاهر من الكلام ان الرجل كان عظيما في قومه حيث ذكر منكراً بالتنوين وهو يدل على التعظيم وكذلك سياق القصة لانه قام ينصح قومه والخلاف قائم بينهم وليس الاقدام على نصحهم في هذه الاؤنة متيسراً الا لرجل له شأن بين قومه — لا سيما قيامه باداء ما وجب عليه في صيانة قومه من المهالك فاسدى نصحه وامرهم باتباع الرسل

وذكر بعض العلماء عند تفسيرهم لهذه الايه ان الرجل هو حبيب ابن اسرائيل وقيل مثري وقيل كان نجاراً وقيل كان حراثا وقيل كان قصاراً وقيل سكافا وقيل نحاتا للاصنام وقيل يمكن ان يكون جامعا لهذه الصفات انتهي) الا ان تضارب الروايات ازال الجزم وترك امره من جهة صفاته مجهولا سوى ما وصفه به القرآن المجيد)

وقد ذكر البعض من المفسرين في سبب ايمان هذا الرجل وجها اذكره اليك هو ان الرجل عبد الاصنام سبعين سنة يدعوهم لكشف ضره فلم يكشف — فلما دعاه الرسل الى عبادة الله تعالى قال هل من آية قالوا نعم ندعوا ربنا القادر يفرج عنك ما بك فقال ان هذا لعجب لي سبعون سنة ادعو هذه الالهة فلم تستطع تفرجه فكيف يفرجه ربكم في غداة واحدة قالوا ربنا على ما يشاء قدير وهذه لا تنفع شيئا ولا تضر فآمن ودعوا ربهم سبحانه فكشف عز وجل مابه كائن لم يكن به بأس فاقبل على التكسب فاذا امسى تصدق بنصف كسبه وانفق النصف الاخر على نفسه وعياله فلما هم قومه بقتل الرسل جاء من اقصى المدينة انتهى والروايات

كثيرة مختلفة متضادة متعارضة لا يمكن التآمها فبناء عليه لا يمكن الجزم بها ولا سيما والاية تفيد ان الرجل آمن لما رأى قوة دليل الرسل وصدق دعواهم حيث ذكر ما يدل على ذلك وبين ان هؤلاء الرسل عليهم الصلاة والسلام شريفوا الغاية كما هو المفهوم من قوله تعالى يا قوم اتبعوا المرسلين اتبعوا من لا يسألكم اجراً وهم مهتدون فانه بيان بجردهم عن كل غاية مادية ويحث الامة على اتباع هؤلاء الرسل الذين لا غاية لهم في هذه الرسالة سوى ارشاد الامة وبعد ذلك اردف الكلام تأيداً للنصح بجملة حالية تنبي ما عليه الرسل من الكمالات كما هو المفهوم من قوله تعالى (وهم مهتدون) اي ثابتون على الاهتداء وهذه الجملة دليل على انهم ممن يجب اتباعهم لانهم يفيضون علينا خيراً في الدنيا وخيراً في الاخرة اذ الوصف باجل مراتب الكمال البالغ مرتبة النهاية يكون دليلا على ان اتباعه ينتج خيراً ومثل هذا يعد ايغالا حسنا وقد جاء الايغال في شعر العرب (كما في قول الخنساء

وان صخراً لتأتم الهداة به ... كانه علم في رأسه نار

فانه سدد النصح واحسن بيانه فكأنه يقول لهم فانا في حاجة للارشاد وقد جائتنا رسل من الله لا يسألوننا اجراً وهم ثابتون في الهداية فيجب علينا ان نتبعهم ان اردنا الصلاح ولما رأى القوم لا يلوون رؤسهم وما لانت شكيمتهم رجع الى تلطيف النصح بان خصه لنفسه كما هو المفهوم من قوله تعالى (مالي لا اعبد الذي فطرني واليه ترجعون) خص النصح بنفسه وذكر الداعي لاختياره اتباعهم ومعنى مالي اي لا مانع لي من الاذعان والايمان برسالتهم والانقياد لاوامرهم وهذا بيان بان عدم الايمان والانقياد للرسل عناد واصرار على الضلال لان الرسل اوضحوا طرق

الهداية وازالوا الشكوك والاوهام ولا سيما وانهم يدعوننا ان نعرض عن عبادة الجماد ونعبد الله الحي القيوم وهذا امر ظاهر في ان الجماد لا يستحق شيئا من التعظيم فضلا عن العبادة هنا نفي المانع وفي قوله تعالى (لا اعبد الذي فطرني) بين المقتضي للاعراض عـــن عبادة الاصنام والانقياد الى عبادة الله معللا ذلك بانه اوجده من عدم وكونه من لا شيء) وضمن الكلام اشارة الى ان المستحق للعبادة الذي يمكنه ان يضر وينفع والجماد ليس كذلك فلزم الاعراض عن عبادته

وقال الامام الرازي رحمه الله وفي العدول عـــن مخاطبة القوم الى حال نفسه حكمة اخرى ولطيفة ثانية وهي انه لو قال ما لكم لا تعبدون الذي فطركم لم يكن في البيان مثل قوله ما لي لانه لما قال ومالي لا يخفى عليه حال نفسه علم كل احد انه لا يطلب العلة وبيانها من احد لانه يعلم حال نفسه فهو يبين عدم المانع واما لو قال ما لكم جاز ان يفهم منه انه يطلب بيان العلة لان غيره اعلم بحال نفسه انتهي ولا يخفى ما فيه من الحسن)

والوجه ما ذكرناه في كمال بلاغة العرب ان البيان ليس تابعا لما يتصوره المتكلم بل البيان يقتضي ان يكون لسبب اوجب انقطاع البيان الاول وهذا يمكن تصوره بامـــور كثيرة — الاول الانقطاع المنتهي وذلك اذا بحثت عن قضية وقد انتهت بمقدماتها وتمت بنتايجها فيكون الانتقال من ذلك البحث الى غير انقطاع المنتهي كما في المباحث المختلفـــة التي تتدون على فصول والثاني انقطاع المناســـب كما في الدلايل والبراهين المركبة من مقدمتين او اكثر فان المقدمات متلائمة فالانتقال من احداهما الى الاخرى لا يكون الا بعد مناسبة لها علاقة بما يقصد من الدلايـــل

و البراهين بان تكون المقدمتين هي الواسطه لاستخراج النتيجة المقصودة من الدليل كما اذا قلنا المفهوم كلي وكل كلي صادق على كثيرين فان بين المقدمتين تناسباً و الثالث الانقطاع عن نوع الاستدلال والدخول في نوع آخر كما في هذه الاية فان الرجل لما اسدى نصحه وفصله لقومه لو و رؤسهم واعرضوا عن سماعه فانتقل عنه الى بيان احكم و القاء اتقن فخاطب نفسه بنفي معذرة يسديها من اعرض عن الحقيقة الواضحة مبينا الامر الذي دعاه للايمان وفي الحقيقة لم ينقطع عن خطابهم وتوبيخهم الضمني ولم يترك سبيلهم فكأنه يقول لهم الاله المعبود ظاهر لا خفاء فيه فمن يمتنع من عبادته يكون من جانبه مانع و لا مانع من جانبي فلا جرم عبدته و على ما يظهر لي هذا سبب عدوله عن مخاطبة قومه والله اعلم

قال تعالى (و اليه ترجعون) ذكر مبدأ الاستدلال مرتباً على بيان ما هو الواجب المقتضي ا فقال (مالي لا اعبد الذي فطرني واليه ترجعون) اي انعم علي بنعمة الوجود فهذه النعمة تلزمني ان اعبده لانه لم يوجدنا عبثاً ولم يتركنا هملا بل اوجدنا لنقوم بواجبنا وهنا لما اقتضي البيان التعميم لئلا يستفاد منه انه وحده ملزم بقيام ما يجب عليه فقال يخاطب قومه بصيغة الجمع فقال (ترجعون) ليعلموا ان العموم مكلف بأداء واجب النعمة اي ملزومون لعبادته اذ اوجدنا لنكون بمظاهر الوجود الكامل و خلاصة الموجودات اذ خصنا بدقيق الانظار و التفكر في العوالم الكونية لنعرفه و نمجده اذ لكل شيء من موجوداته تكامل و تكامل البشر بالمعرفة فنرجع اليه يسألنا عن تلك المعرفة فيجازي المسيئ و يكافي المحسن فليس بجائز ان اتخذ غيره الها فقال (أ أتخذ من دونه

آلهة ان يردني الرحمن بضر لا تغني عني شفاعتهم شيئا ولاهم ينقذون)

بنى هذا على ما مر من الايات وجعلها بحكم العلة اي اذ ثبت ان المعبود هو القادر وان الايجاد ليس عبثا بل لاجل كمال المعرفة يكون اتخاذي من دونه آلهة وبالا ثم عاد وايد ان غير الله لا يتخذ الهاً كما هو الظاهر من قوله تعالى (ان يردني الرحمن بضر لا تغني عني شفاعتهم شيئا ولا هم ينقذون) بحث عن المالكية وكيفية التصرف في الملك فحصر ذلك به تعالى ولم يجعل لاحد مجالا بوجه من الوجوه دفعا لما توهمه المشركون من جواز اشتراك غير الله في ملكه تعالى

قال تعالى (اني اذاً لفي ضلال مبين) هذا بيان ما يحدث على تقدير اتخاذه آلهة من دون الله وعلة مانعة للاتخاذ لانه ينتج الضلال — ومعناه اني لم اتخذ آلهة من دون الله لانه ينتج ضلالا فتكون الآية بيانا لمن يستحق العبادة ومن يوجب علينا عبادته — واستدلال معللا بامور توجب الحذر عن اتخاذ الاصنام آلهة او جعلها شريكا له تعالى

وبعد ان بين بالبرهان الدال على انه لا يعقل ان تكون الاصنام آلهة ولا شريكة له تعالى اثبت ان اتباع الرسل لازم فخاطبهم قائلا (اني آمنت بربكم فاسمعون) واشار بهذا الخطاب الى ان الرسل وصلوا الى كمال المعرفة واتصفوا بالاداب العالية فهم احق بالاقتداء ثم انه خاطبهم وجهر بايمانه في ذلك المقام الرهيب بيانا لثقته في الحقايق الواجبة الاعتقاد ولبيان هؤلاء هداة يقتدى بهم ولان ما جاؤا به هي الحقايق الكونية لا ما تصورته عقولنا وتخيلته مخيلتنا فاتباعهم كمال فبناء عليه اقول (اني امنت بربكم فاسمعون

وبعد ما حث قومه ان يتبعوا الرسل اعلن ايمانه وبين واضحا ما كان راسخاً في نفسه وطلب من قومه ان يسمعوا قوله وايمانه

فان قيل انه كان يفهم من اقواله السابقة انه مؤمن بالرسل — قلت ان الرجل كان يحث قومه على اتباع الرسل والايمان بهم ومراده ان يجمعهم على الايمان فلما اعرضوا ولم يتفقوا نفر عنهم واعلن ايمانه فكأنه يقول يا قومي انكم لم تسمعوا نصحي ولم تؤمنوا بهؤلاء الرسل فاني انفـــرد منكم معلنا ايماني فاسمعون ايها القوم فتلخص من هذا ان الايات تدل على انه كان يريد ان يؤمن متفقاً مع قومه ولما خالفه قومه انفرد عنهم واعلن ايمـانه — واشار بهذا الى ان الرسل وصلوا الى كمال المعرفـــة واتصفوا بالاداب العالية فهم احق بالاقتداء بهم من غيرهم كان القوم لا يعتقدون انه ينفرد عنهم ويعلن ايمانه فاظهر انفراده لئلا يكون في ايمانه شبهة مبيناً ان التردد في الايمان لا يفيد بل الجهر لازم من لوازمه غير ملتفة الى غضب قومه عليه

فان قيل ولما سمع قومه جهره بالايمان والانفراد عنهم ماذا فعلوا — قلت قال ابن عباس وكعب ووهب خنقوه وهذا القول غير مستبعد وذكر جملة آمنت مصدرة بما يفيد التأكيد دفعاً للشبهة وبيانا بان ايمانه كان عن دليل فان قيل انما قال اني آمنت بربكم فذكر لفظ ربكم ولم يقل اني امنت بالرسل وهو اعم واشمل قلت ان الرسل بدؤا قبل كل شيء بتعليم التوحيد وتطهير النفوس والافكار من تعاليم الوثنية تعاليم لاتنفي الشرك بالله تعالى واصل البحث ومدار الكلام هنا في التوحيد المجرد عن شائبة الشريك ولذا وجه الخطاب بقوله بربكم للرسل ليفيد انه آمن بالله الذي لا شريك له والذي بينه الرسل لا الذي يعتقد به المشركون

(وبعد مجاهرته في الايمان اقتضى بيان ما يترتب على ذلك قال تعالى
(قيل ادخل الجنة قال يا ليت قومي يعلمون بما غفر لي ربي وجعلني من
المكرمين

هذا بيان ما يترتب على الايمان الاستدلالي الذي أثار في النفوس التفاني فان قيل ان هذا الرجل كان مشركا قبل مجيء الرسل للقرية وبعد مجيئهم آمن وعقيب ايمانه توفى ومجرد الايمان اي الخالي عن الاعمال وان كان سبباً للسعادة وسبباً للدخول في الجنة الا ان ذلك يكون بعد الحساب وهذه الاية بينت ان الدخول بالجنة كان بمجرد الايمان

قلت ان الايمان بالله والتوبة تجب ما قبلها وان التأئب من الذنب كمن لا ذنب له فاذا آمن المشرك ايماناً راسخاً وعقيب ذلك توفى يدخل الجنة لان الايمان طهره وكفر سيآته وتوفى طاهراً من رجس الاثام وعلاوة على ذلك ذهب الى دار الاخرة يحمل فضيلة الايمان

واذا لاحظنا ايمان هذا الرجل نجد الايمان احاط في جميع شعاب قلبه مستولياً على عقليته فلم يدرك فضيلة اعلا ولا مزية اولى منه وقام يدعو قومه ان يماثلوه ويساوه فجاهر بالايمان فأدت مجاهرته الى قتله وقد فاته زمن العمل في المسائل الفرعية مرغماً فعدل الله يقتضي دخوله الجنة

فان قيل من قال له (قيل ادخل الجنة) — قلت ان الرجل لما آمن ورسخ الايمان في روحه انكشف له الغطاء وسمع الملائكة تناجيه او ان هذا الحكم بيان لما يقتضيه الايمان فعلى هذا يكون قوله تعالى (قيل ادخل الجنة) بيانا لما يترتب على الايمان فيكون المعنى ان الذي يؤمن تكون الجنة ماؤاه

اجل ان الرجل لما آمن تجلى في روحه مطهر المشاهد فشاهد بذلك

المظهر الملائكة و بشرته بدخوله في الجنة

و لما كانت هذه البشارة مما تطرب لها النفوس سروراً و تتلذذ لها الارواح حبوراً و تبين ان الايمان هو السعادة الابدية والسعادة الدائمة حكى القرآن المجيد عما حصل «بواسطة الايمان» مبينا فضائل اخلاقه اذبين محبته لاشتراك قومه في هذه السعادة الابدية فقال تعالى

(يا ليت قومى يعلمون بما غفر لي ربي و جعلني من المكرمين) هذه الاية تحكى عن اخلاقه العالية و تبين لنا فضائله الروحية التي فاز بها بواسطة صحبته واذعانه لما جاء به الرسل فاخرجته هذه الصحبة والاذعان من الملكات المنحطة الى ملكات واخلاق عالية و روح فاضلة حتي اصبح يحب الخير لغيره مثلما يحبه لنفسه — فعلى هذا تكون الاية واردة لبيان ماذا يفعل الايمان بالامم مبينة الرجل الصالح بمثابة المثل المشاهد فكأن الاية تحكى عن عوامل الايمان و تبين آثارها بذلك و تبشره(قيل ادخلو الجنة — هذا ما فعله الايمان بالرجل اذكان قبل ان يؤمن بالرسل حريصا لا يحب غير نفسه و لا يميل الا لحصر المنافع في شخصيته و لكن لما صاحب الرسل و آمن بهم تحولت عقليته و تبدلت روحيته و صار رجلا اجتماعيا يحب الفضائل وكان يتمنى لقومه ان يشاركوه بفضائل عالية اذ اراد ان يماثلوه كما هو المفهوم من قوله تعالى (ياليت قومى يعلمون) بما غفر لي ربي) اي كفر عني سيآتي السابقة بسبب الايمان و علاوة على ذلك جعلني من المكرمين فهنا بين للايمان مزيتين اصليتين احدهما الفوز والاكرام وانه كفر ما كان قبل الايمان من اعمال غير مرضية والايمان كفرها والثانية ان الايمان يجعل في النفوس نزعة فاضلة يكون الانسان بها مكرما فيكون له موقع عظيم عند الله تعالى

اقوال المفسرين

قالوا قوله تعالى (قيل ادخل الجنة) استئناف لبيان ما وقع له بعد ذلك — والظاهر ان الامر اذن له بدخول الجنة وفي ذلك اشارة الى ان الرجل قد فارق الدنيا — فعن ابن مسعود انه بعد ان قال ما قال قتلوه بوطء الارجل حتى خرج قصبه من دبره والقي في بئر الرس — وقال السدي رموه بالحجارة وهو يقول اللهم اهدي قومي حتى مات — وقال الكلبي رموه في حفرة وردوا التراب عليه فمات — وعن الحسن حرقوه حتى مات وعلقوه في بر المدينة وقبره في سور انطاكية وقيل نشروه بالمنشار حتى خرج من بين رجليه ودخوله الجنة بعد الموت دخول روحه وطوافها فيها كدخول سائر الشهداء وقيل الامر للتبشير لا للاذن بالدخول حقيقة قالت له ملائكة الموت ذلك بشارة له بأنه من اهل الجنة يدخلها اذا دخلها المؤمنون بعد البعث وحكى نحو ذلك عن مجاهد اخرج عبد بن حميد وابن جرير وابن المنذر وابن ابي حاتم عنه انه قال في قوله تعالى (قيل ادخل الجنة) وجبت له الجنة وجاء في رواية عن الحسن انه قال لما اراد قومه قتله رفعه الله الى السماء حيا كما رفع عيسى عليه السلام الى السماء فهو في الجنة لا يموت الا بفناء السماء وهلاك الجنة فاذا اعاد الله تعالى الجنة اعيد له دخولها فالامر كما في الاول — والجمهور على انه قتل وادعى ابن عطية انه تواترت الاخبار والروايات بذلك وقول قتادة ادخله الله تعالى الجنة وهو فيها حي يرزق ليس نصا في نفي القتل — وفي البحر انه اراد بقوله وهو فيها حي يرزق قوله تعالى بل احياء عند ربهم يرزقون — وقال بعضهم الجملة جواب سؤال مقدر كأنه قيل ما حاله عند لقاء ربه عز وجل

بعد ذلك التصلب في دينه فقبل (قيل ادخـــل الجنة) و التعبير بالماضي لتحقق الوقوع

والتحقيق المعول عليه من هذه الاقوال انه جواب سؤال مقدر كأنه قيل ما حاله عند لقاء ربه عز وجل بعد ذلك التصلب في دينه (قيل ادخل الجنة) او جملة مرتبة على جهره بالايمان هي (اني آمنت بربكم فاسمعون) والروايات المـــذكورة غير مستفاده من الايات لا صراحة ولا اشارة فبناء عليه لا نجزم بها ما لم تكن ثابتة وما ذكره المفسرون لم يذكروهـــا بسندها فعلى هـذا تكون منقطعة مجـهولة السند و مثلها لا يعول عليه — لان العلماء قرروا ان الرواية اذا كانت مجهولة السند لا يصح ولا يجوز الاعتماد عليها ولا الاخذ بها — ولا سيما اذا كانت الروايات مخالفة لاصول الدين كما في هذه الروايات فلا يلتفت اليها

وقال المفسرون في تفسير قوله تعالى (يا ليت قومى يعلمون بما غفر لي ربي وجعلني من المكرمين) انه استئناف بياني — كأنه قيل بعد ان نال هذه الكرامة في الله كيف كانت احواله وشؤنه حكى تعالى انه تمنى لقومه الفوز بالتعميم واراد ان يحملهم على التوبة عن الكفر والدخول في الايمان والطاعة جرياً على سنن الاولياء في كظم الغيظ والترحم على الاعداء وفي حديث انه نصح قومه حياً وميتاً انتهى فان قيل ان الاية لا تفيد انه تمنى مشاركة قومه في هذه الفضيلة والحقيقة انه تمنى علمهم كما لا يخفى — قلت انه دعى قومه اولا ان يؤمنوا بالرسل وان يتبعوه ويسمعوا نصحه وبعد ذلك ذكر يا ليت قومى يعلمون) الخ فتكون الغاية من تمنى علمهم بحاله ترغيبهم بالايمان لان البشر متما علم وايقن بامر خيراً يهرع اليه

و يرغب فيه — فعلى هذا يكون نتيجة علمهم بحاله مستلزماً لتمني ايمانهم وفوزهم بالسعادة التي فاز بها قال تعالى (وما انزلنا على قومه من بعده من جند من السماء وما كنا منزلين) ان كانت الاصيحة واحدة فاذا هم خامدون)

ان المخاطب لما بين له ما حصل للرجل بسبب ايمانه من الاكرام والسعادة الابدية كان في انتظار ما يكون وما يترتب على اصرار المعاندين الذين لا يريدون الا فساداً في الارض حكى جل جلاله عن حالهم وبين انه قطع دابرهم بقوله تعالى (وما انزلنا على قومه) الخ ومعنى الاية انا لم ترسل لهم جنوداً تقاتلهم بل ارسلنا عليهم بلاء قضى عليهم ودمرهم واطفأ نار شوكتهم فخمدت شرور عظمتهم — وفي الايه اشعار بان هؤلاء القوم استأصل الكفر في نفوسهم والعناد في عقولهم وسلب من قابليتهم قبول الفضائل بسبب تماديهم على الكفر فلا يمكنهم الاذعان وقبول النصح والارشاد فاقتضى استأصالهم واطفأ نار غرورهم فانزل الله عليهم بلاء استقصاهم فعلى هذا يكون حاصل الاية انه تعالى دمرهم بعد ان استحقوا ذلك وانزل بلاءه بعد ان رسخ الفساد في نفوسهم — وهنا بين امرين احدهما ان الايمان الاستدلالي يكون وسيلة للاكرام والدخول في الجنان والثاني ان الكفر والعناد يكون وسيلة للهلاك والمحو في الدنيا والاخرة

فان قيل انه تعالى بين في القرآن المجيد انه انزل في يوم بدر جنوداً لتدمير قريش ومن كان يحارب محمداً عليه الصلاة والسلام كما هو المفهوم من قوله وانزل جنوداً لم تروها وهنا بين انه اهلك المعارضين ولم ينزل جنوداً فما الحكمة — قلت قال المفسرون حرمة لمحمد اهلك العرب الذين حاربوه بواسطة انزال الجنود انتهى. ولكن اسلوب الاية وهي قوله

تعالى وانزل جنوداً لم تروها لا يشعر بذلك فلا يكون جوابهم موافقاً — والتحقيق المرضي ان العرب كانوا امة استولى عليها الرومان من جهة والفرس من جهة فجزيرة العرب كانت موزعة بين هاتين الدولتين فالقسم الجنوبي كان ملكا للرمان والقسم الشمالي كان ملكا للفرس والعرب عموماً تعيش تحت سيطرة هاتين الدولتين فليس لها كيان خاص بها ولا نظام يمثل الامة العربية الا ان قبولها لهذه السيطرة وخضوعها كان مبنيا على القوة ولكن روحها القومى كان يريد ازالة ذلك السلطان ودفع تلك السيطرة — وهذه احوال تنزع من روح البشر الغرور ونخار الطاغين فموقف العرب غير موقف الامة الرومانية — فالعرب كانوا يريدون ان يكون لهم حال اجتماعي خاص وكيان مستقل بخلاف الرومانين فانهم كانوا حماة لموقفهم وكانوا مغرورين بعظمة دولتهم بحيث لم يتصوروا عزاً فوق عزهم وموقفا اعلا من موقفهم ولا نظاماً ارقى من نظامهم فاختلف موقف الامتين فموقف العرب يقتضي تأديب المعارضين لامحوهم بخلاف الامة الرومانية فان موقفها يقتضي هدم شوكتها ومحو اثار عظمتها فارسل الله الجنود لتأديب العرب لان الجنود ترسل للتأديب لا للمحو

فيكون الاية حاكية عن حالة العرب وبيان ان الفساد لم يكن عاما ويمكن ان يقال ان العرب ما كانت تعتمد على قوتها بل كانت تعلم انه لا قوة لها في معارضة ومحاربة الملوك بخلاف الرومانين فانها كانت تعتمد على قوتها وسلطانها وتزعم انها لا تعارض ولا تغلب فالبيان في هذا الموقع يقتضي ان يكون على نمط يوافقه ويبين انهدام ذلك السلطان باسرع ما في

الامكان فقال تعالى (وما انزلنا على قومه من بعده من جند من السماء) الخ هدمنا
عظمة سلطانهم بسرعة ما يتصوروها ومحونا قوتهم بصحة واحدة
فقوله اي بصيحة واحدة تمثيل لتصوير سرعة انهدام قوتهم التي بها اغتروا

وليس هذا التصوير حكاية وقعة - بل الغاية من التصوير عظة تمهد
للعقول التبصر وللمعتبرين الرجوع عن الضلال - وحجة على المتمادين في
غيهم اذ انزلت بهم نازلة العذاب — وبياناً بأن الله تعالى قادر وغالب كل
غالب — حيث يبين انه هدم سلطان الدولة الرومانية عند ما عارضوا
الرسل — بياناً يفيدنا ان لا حياة للبشر ما دام معارضاً — ولا بقاء له ما
دام لا يهتدي بهديهم عليهم الصلاة والسلام — واضاف الى ذلك بيان انه
لا يؤاخذ الأمة الا بما تستحق من المؤاخذات — فالعذاب تابع للاستحقاق
وبعد ان بين ما فعل بالأمة الرومانية بناء على استحقاقهم عاد الى بيان
احوال الأمة عموماً — فقال (يا حسرة على العباد ما يأتيهم من رسول الا كانوا
به يستهزؤن

وحاصل ما قاله الامام الرازي رحمه الله تعالى ان الاحوال التي تصدر
من البشر مما توجب الحسرة الا انه لا تقع منه الا عند تحقق الندامة التي
تكون وقت العذاب — ثم قال واللام في العباد يجوز ان تكون للجنس
ويجوز ان تكون للعهد

قال الامام العلامة ابو السعود رحمه الله تعالى — وان المستهزئين
بالناصحين الذين نيطت نصائحهم بسعادة الدارين احقاء بأن يتحسروا
ويتحسر عليهم المتحسرون ؛

وقال صاحب الكشاف رحمه الله تعالى — نداء للحسرة عليهم كأنما

قيل لها تعالي يا حسرة فهذه من احوالك التي حقك ان تحضري فيها وهي حال استهزائهم بالرسل والمعنى وأحقاً بأن يتحسر عليهم المتحسرون ويلتهف عليهم المتلهفون

كلام يتعلق بالعربية

فان قيل ان العرب كثيراً ما يذكرون الفعل المتعدي ويحذفون المفعول لمزايا يقصدونها ولكن حذف الفاعل نادر وفي قوله تعالى (يا حسرة على العباد) الخ الفاعل محذوف

قلت ان كلام العرب في نظمه تابع الى ما يقصده المتكلم فان قصد المتكلم بيان صدور الفعل من فاعل معين فحينئذ يلزم ذكر الفعل والفاعل كما في قوله تعالى (انا ارسلنا الى فرعون رسولا فعصى فرعون الرسول) فان القصد بيان صدور الفعل من فاعل معين وهو الله تعالى وان كان القصد بيان وقوع الفعل على مفعول معين فحينئذ يلزم ذكر الفاعل والمفعول معاً وان كان القصد حدوث الفعل ووقوعه فحينئذ يحذف الفاعل كما في قولك قتل زيد فأن القصد بيان وقوع الفعل على مفعول . وان كان القصد حصول الفعل فقط فيذكر بدون فاعل كما في هذه الاية لان ذكر الفاعل او المفعول يكون موهما خلاف ما هو المقصود — لان البيان هنا تصوير ما يحصل عند مشاهدة العذاب — فقال (يا حسرة) احضري هذا وقتك فيكون حاصل معنى الاية ان البشر يستهزيء بالناصحين المخلصين المنوط بنصحهم خير الدارين — لكن هذا الاستهزاء سيعود عليه وبالا يوم يرى العذاب فيتحسر على ما فاته ويعلم ان نصح الرسل كان مؤدياً الى سعادة الدارين — وللمفسرين اقوال كثيرة وما ذكرناه هو

هو المعول عليه و بعد ان ذكر ما يدل على ما فعل بالمشركين و بين نتيجة عنادهم وقتلهم للرجل واوقفهم موقف المتحسر وصور هول ذلك الموقف تصويراً يذهل العقول عاد الى بيان هذا الموقف فقال تعالى (الم يروا كم اهلكنا قبلهم من القرون انهم اليهم لا يرجعون) الخ .... ومعنى الايه انهم احقاء ان يعذبوا و يقفوا موقف متحسر لا يفيده الندم — لأنا اوضحنا لهم مناهج الأعتبار وبينا ما هى الاحكام المقررة في عالم القضاء بواسطة الرسل و مكناهم ان يشاهدوا و يعلموا ما كان للأمم التي اشركت

فأن قيل لماذا وردت الاية بصورة الاستفهام التوبيخي والتبكيت عليهم — قلت الجواب يتوقف على مقدمات — المقدمة الأولى انه بعد ما بين ما يوجب الاعتبار واضحاً وعلاوة على ذلك ارسل رسلا ينصحونهم ويرشدونهم فاعرضوا واستهزؤا و لم يؤثر الدليل والبرهان بهم ولا نصح الهدات اقتضى التوبيخ والتبكيت في مثل هذا الموقف اي عند نازلة العذاب بهم — المقدمة الثانيه انه صور موقفهم اولا ثم ذكر جملة مقرونة بهمزة الاستفهام يراد به اللوم المعلل في بيان انهم احقاء بالعذاب حيث انهم عدلوا عن نصح الناصحين) المقدمة الثالثة ان الاية وردت في المواقع الخطابية ليعتبر المعتبرون بالماضين الا ان التصوير كان بديعاً مكتسياً بحلة الأعجاز حيث انه صور ما يكون كائناً و ما يقع واقعاً وما يحصل في ذلك الموقع و يلا و ثبوراً وخاطبهم لائماً ومبكتاً ومسجلا عليهم موقفهم فكان لهذا التصوير سلطان على العقول يقودها حيث يشاء

المقدمه الرابعة — انه بين ما يكون للمشركين يوم القيامة وقصه ارشاداً ليلفت انظارهم وحثهم على الاعتبار بالامم الماضين و ما

جرى لهم حيث انكروا الرسل واشركوا بالله — واخرج هذه القصةبصورة الحجة على المشركين — فكأنه يقول لهم انا ارسلنا لكم رسلا ارشدوكم الى ما يكون سبباً لنجاتكم وجعلنا لكم عقولا لتميزوا بها وقد سبق ما يوجب الاعتبار وهو هلاك الامم والقرون الماضية فكان اللازم عليكم ان تعتبروا. ولكن عارضتم الرسل وتطورتم بعزة الباغين فانتم احقاء في هذا الموقف اذ هو نتيجة اعمالكم وذكر الجملة مقرونة بالهمزة الاستفهامية ليتمكن المخاطب. من تصوير موقفهم وان ما وعدوا به كائن لا محالةو لما كان العذاب والندم انما يكون في الاخرة — قال تعالى (وان كل لما جميع لدينا محضرون) تكميلا للحجة والبرهان ودفعاً لما يتصوره المشركون من ان اعادةالمعدوم محــال ثم انه تعالى صور في هــذا الاية امرين احدهما هلاك تلك الأمة والثاني تعذيبهم تكميلا للأعتبار وبياناً لكمال قدرته فبين انه يحييهم بعد ذلك الهلاك ويعذبهم لأنهم اشركوا

مبحث في بيان نوع الحجة

نوع الحجة برهان تأسس على المقدمات الاولية يراد بــه اثبات الوحدانية الا ان البيان جاء على اسلوب اثبــات النقيض حيث انه بحث عن مقتضى الشرك والشريك ونفاه واثبت نقيض لازمه وتقريره ان العرب والرومان وغيرهما من الامم كانوا يعتقدون بوجود اله الا ان هذا الأعتقاد ممزوج بالشرك — ومعناه ان الغالب من الأمــة كان يعتقد ان عالم الأيجاد يكون بواسطة الشريك وقالوا ليس فاعل هـذا الكون الهاً واحداً بل آلهة متعددة ولما كان هذا الاعتقاد باطلا جاءت الحجة

اثباتاً لبطلانه وارشاداً للأمة لكي تدرك الحقيقة الا انه جاء الابطال بصورة يستلزم اثبات الوحدانية على اكمل وجه اذورد بأثبات نقيض لازم الشرك لأن المتأمل في الاية يجد حاصل الاية انه هلكت الأمة التي كانت معتقدة بالشرك لاجل اعتقادها وهذا ليس بممكن لوكان عالم الأيجاد مبيناً عليه بل كان البقاء لازماً لها كأنه يقول ما بالكم لا تعتبروا وقد هلكت الأمة المعتقدة بالشركة والشريك فيلزمكم ان تعتبروا بعدم الشركة ولا ريب في ان مقدمات هذه الحجة اوليات لأنها مبنية على ما تقتضيه الشركة واذا نفى ذلك المقتضى ثبت بالبداهة نقيضها وهو التوحيد

مبحث في الاعراب وما يتعلق به

اختلف القوم في اعراب قوله تعالى (الم يروا كم اهلكنا قبلهم من القرون انهم اليهم لا يرجعون) الخ... الأستفهام للتقرير وكم خبرية في موضع نصب بأهلكنا ومن القرون بيان لكم وجوز بعض المتأخرين كون كم مبتدأ والجملة بعده خبرية ونقل العلامة الألوسى رحمه الله تعالى بأنه كلام لاخير فيه والجملة معمولة ليروا نافذ معناها فيها وكم معلقة لها عن العمل في اللفظ لأنها وان كانت خبرية فلها صدر الكلام فلا يعمل فيها ما قبلها على اللغة الفصحى الا اذا كان حرف جر او اسماً مضافاً نحو على كم فقير تصدقت ارجوا الثواب وابن كم رئيس صحبت وحكى الاخفس على ما في البحر جواز تقدم عاملها قال الأمام الرازي والبيضاوي ان قوله تعالى (انهم اليهم لا يرجعون) ابدلت ان وصلتها من كم ولكن هذا القول غير مرضي عند ابن هشام حيث قال في مغنى اللبيب ان عامل البدل هو عامل

المبدل منه فأن قدر عامل المبدل (يروا) فكم لها الصدر فلا يعمل فيها ما قبلها وان قدر اهلكنا فلا تسلط له في المعنى على البدل لانه يختل المعنى ويكون حينئذ اهلكنا انهم اليهم لا يرجعون او اهلكنا عدم الرجوع ولا معنى لتعليق الهلاك بالعدم — والصواب ان كم مفعول لأهلكنا والجملة معمولة ليروا على انه علق عن العمل في اللفظ وان وصلتها مفعول لأجله وما معترضة بين يروا وما سدمسد مفعوليه وهو ان وصلتها فعلى هذا يكون المعنى الم يروا اهلاكنا كثيراً من القرون حاصلا لانهم لا يرجعون الى الكفار فيكون العامل في قولنا لأنهم هو اهلكنا لأنه علته او العامل هو يرى اي الم يعلموا انهم لا يرجعون فعلته عدم الرجوع اليهم ولا يخفى ما في ذلك من البعد — قال العلامة الألوسي في تفسيره (انهم) الضمير عائد على معنى كم وهى القرون المهلكين وضمير اليهم الى اهل مكة (لا يرجعون) وان وما بعدها في تأويل المفرد بدل من جملة كم اهلكنا على المعنى كما نقل عن سيبويه ويتبعه الزجاج اي لم يروا كثرة اهلاكنا من قبلهم وكونهم غير راجعين وقيل على المعنى لأن الكثرة المذكورة وعدم الرجوع ليس بينهما اتحاد لا بجزئية ولا كلية ولا ملابسة كما هو مقتضى البدلية لكن لما كان ذلك في معنى الذين اهلكناهم وانهم لا يرجعون بمعنى غير راجعين اتضح فيه البدلية على انه بدل اشتمال او بدل كل من كل قاله الخفاجى — وافاد صاحب الكشف على انه من بدل الكل بجعل كونهم غير راجعين كثرة اهلاك وعندي ان هذا الوجه وان لم يكن فيه ابدال مفرد من جملة وتحقق فيه مصحح

البدليه على ما سمعت لا تخلو عن تكلف

مبحث يتعلق في اعجاز الاية

ان الجمل في المخاطبات الارشادية يجيب ان تكون شديدة الملائمة ، محبوكة العلائق ويكون المنتهى متمما للمبدأ — ويكون المبدأ مقتضياً لذلك المنتهي ، بحيث لا يسد غيره فراغه وما به التخاطب هنا جاء للارشاد ، وقلع ما في النفوس من الغي والبغي مصوراً نزعة اصحاب القرية وحالهم وما هم عليه من المفاسد التي غشت على عقولهم وجعلتهم يصرون على الكفر والعناد ، وهذه الاحوال حملتهم على الاعتقاد بأن لا غالب يغلبهم ، وبعد ان تم هذا البيان بين الاسباب المنجية والاسباب المهلكة ، ونوع البشر تبعاً للاتصاف بتلك الاسباب ورتب عليه ما يقتضيه الوصف من عذاب ونعيم كما هو المفهوم من قوله تعالى — واضرب لهم مثلا اصحاب القرية اذ جاءها المرسلون — الى قوله — ألم يروا كم اهلكنا قبلهم من القرون —

فاذا لاحظنا مضمون هذه الايات نجد مبدأ الكلام وهو قوله — واضرب لهم مثلا اصحاب القرية — يقرر تمادي الامة على العناد مع وضوح الحجة وقابلوا نصائح الرسل بالانتقام كما هو المفهوم من قوله تعالى - (قالوا انا تطيرنا بكم لان لم تنتهوا لنرجمنكم وليمسنكم منا عذاب اليم قالوا طائركم معكم أأن ذكرتم بل انتم قوم مسرفون) -

الايات تفيد انه تعالى ارسل الرسل لترشد اصحاب القرية الى ما تقتضيه سعادة الدارين ولتعلمهم بأن سلوكهم لا ينتج الا ويلا وثبوراً ، فأبوا واصروا على كفرهم وعنادهم ولم يبالوا بنصحهم ولم يلتفتوا الى حجتهم

كما هو المفهوم من قوله جل وعلا — أأن ذكرتم — ثم اكد اصرارهم وتماديهم بقوله — وجاء من اقصى المدينة رجل يسعى — الخ.

هنا تصور حالة، القوم؛ وما فعل الرسل تصويراً رفيعاً لا يجارى في اسلوبه ولا يضاهى في تركيبه وذكر ثبات الرسل وما فعلوه من الانقلابات الروحية والعقلية، واضاف الى ذلك تصوير الوقائع والمشاهد دائراً بين ترغيب وترهيب يفيض على عقلية الرسول عليه الصلاة والسلام وروحه القدسية المواقف الارشادية. وماذا كان يفعله الرسل وبين ما لاقوا، ثم بين المسترشدين وبين ما نالوا من الفضائل بسبب الايمان كما هو المفهوم من قوله تعالى — وجاء من اقصى المدينة رجل يسعى قال يا قوم اتبعوا المرسلين اتبعوا من لا يسئلكم اجراً وهم مهتدون — وهذا البيان يتضمن ان النفوس المستفيدة اثر فيها ارشاد الرسل وادركت فضائلها وما هم عليه من الاخلاق الفاضلة بخلاف النفوس المستغنية فانها تمتنع من قبول الفضائل وترفضها مصرة على ما كانت عليه من الضلال وبعد هذا البيان عاد وبين ما كان للرسل من التأييد وما كان للكافرين من التدمير كما هو المفهوم من قوله تعالى (وما انزلنا على قومه من بعده من جند من السماء وما كنا منزلين ان كانت الا صحبة واحدة فاذا هم خامدون)

هذا بيان اقتضاه المبدأ — لان المبدأ كان يشير الى ان الله تعالى لما خلق العالم جعل له نظاما يتكفل بحفظه وبقائه الى اجل معلوم وخصص البشر بشرع ونظام يحفظ اجتماعه ويكمل افراده مبينا انه تعالى ارسل رسلا تعلم البشر ما هو الشرع والنظام المقرر في عالم القضاء — ثم بين مسالك

الشقاء والعذاب السرمدي ووزع الاحكام على كيفية تشير الى ان اتباع الرسل موصل الى السعادة ومخالفتهم توصل الى الشقاء — كما هو المفهوم من قوله تعالى (قيل ادخل الجنة) فأنـــه تعالى رتبها على مجاهرتـــه بالايمان اشعاراً بقدرته وقال في حق المخالفين (وما انزلنا على قومه من بعده من جند من السماء) الخ .

اشعاراً بان مخالفة الرسل تؤدي الى الدمار والمحو والهلاك مشيراً الى الاحوال الفارقة بين المخالفة المستندة على الاصرار والعناد وبين المخالفـــة التي كانت مبينة على الغفلة فالاولى لا يتم امرهـا الا بالدمار والمحو بخلاف الثانية

واذا لاحظنا حال الامـــه العربية وحال الامـــه الرومانية نجد فرقا عظيما بين الامتين فأن الامة الرومانيـــة كانت في عظمة الاستقلال وشوكة السلطان لا يهمها شرع ولا تبالي بنظام مقدسة عوائدهـــا المألوفة فالاية تشير الى ان الله حل قوتها وهدم عظيم شوكتها وفي هـذا اشارة واعتبار للامة العربية لانها ضعيفة نظراً الى الامة الرومانية وقـد انمحت آثارها واندثرت اخبارها بسبب مخالفتها للرسل فكأن الاية تقول للعرب اعتبروا بالماضين وانظروا الأمم التي كانت اقوى منكم دمرهم الله عند ما خالفوا الرسل

وبعد ان بين حال الامة الرومانية وعقلية الامة العربية الفت المخاطب للنظر في واسع قدرته وعظيم سلطانه — فقال جل وعـلا (وكم اهلكنا قبلهم من القرون) الخ .

اي اهلك قرونا لاجل انها خالفت مـا هو مقرر في عالم الايجاد ومحى

اقواماً لانهم لم يتبعوا سنن مقتضى الحياة اذ اشركوا بالله تعالى وهو امر باطل وحال غير ثابت وبين ان الهلاك ليس خاصا بالامة الرومانية — بل هو عام يشمل ويعم الامم اذا اشركت وبنى الهلاك على علية الشرك

تأمل في هذه الاية وما قبلها ولاحظ المناسبات التي جعلت التلايق بينها وثيقة العرى محكمة البيان اذ جعل اسباب هلاك الامم اولا الشرك وعقيب ذلك ذكر هلاك الامة التي كذبت الرسل الثلاثة ثم بين ان الشرك علة مطردة فاي امة اشركت بالله فالمحو يعقبها والهلاك يكون نازلا بها

ولا ريب في انه تنديد يقلع من النفوس أميال الشرك وايغال في الارشاد يهدي المتدبرين بانه تعالى قرر في عالم الايجاد وقضى قضاء لا محيد منه بان الامة اذا اشركت هلكت فعلى هذا يكون النهى عن الشرك مبنيا على برهان ارشادي — يلفت النظر الى تاريخ حياة الامم الماضية وتدقيق الاسباب الداعية الى هلاكها

اجل ان المطلع على التاريخ اذا تصور نظام حياة الامم التي هلكت لا يجد علة سوى انها اختل نظام حياتها الاجتماعي ولا شك ان ذلك يبدء من حالتها الروحية والشرك بالله اول ناموس يسبب في تنازع الامم ويقوم لها حروبا وتنازعاً كما كان في الامه الرومانية وغير من الامم الماضية

قال الله تعالى (واية لهم الارض الميتة احييناها واخرجنا منها حبا فمنه يأكلون وجعلنا فيها جنات من نخيل واعناب وفجرنا فيها من العيون

وآية لهم الارض الميتة احييناها (الاية) وهذه الاية ايضا ايقاظ يلفت الانظار واستدلال على ان اعادة المعدوم ليس بمحال ومن تأمل يجد الاية استدلالا بالنظير وفيها اشارة الى ان الموت والحياة اعراض تتبادل على اصل المادة وجوهرها (واخرجنا منها حبا) وهذا بيان لوازم الحياة واشار في قوله ومنه يأكلون الي ان الواجب عليهم ان لا يصروا على عدم جواز اعادة المعدوم حيث انهم يأكلون من ثمره والميت لا ثمرة له (وجعلنا فيها جنات من نخيل واعناب وفجرنا فيها من العيون ليأكلوا من ثمره وما عملته ايديهم افلا يشكرون) عدد لوازم الحياة اثباتا لما مر وايقاظا ينبه المنغمسين بالغفلة وقوله تعالى « افلا يشكرون » تنديد يفيد انه كان يجب عليهم ان يتأملوا في هذه النعمة ويشكرون الله عليها ولا يعدلوا عن شكره الى الكفر والعناد .

وفي الاية توبيخ يردهم عن الانكار حيث تضافرت عليه الدلائل منها ان القدرة الالهية اعادت الحياة في الارض بعد موتها وواصلت سلسلة الانتاج فلا محل للانكار والعناد اذ ما جاز هنا يجوز في الانسان (سبحان الذي خلق الازواج كلها مما تنبت الارض ومن انفسهم ومن مالا يعلمون) وهذه الاية ايضا استدلال على ان اعادة المعدوم جائز الا ان نوع الاستدلال في بيان اصول الايجاد يعني المواد التي تركب العالم منها وهذه الاية تصورها في نبات الارض وفي الانفس ومن ما لا يتعلق بها علم احد سوى الله والاية تتضمن بدائع قدرته تعالى حيث اوجد الكون من صور وانواع متبادلة فالنبات صورة تحولت الى صور حتى صارت انسانا او حيوانا وكذلك المني تحول من صورة الى صورة اخرى وتبدل نوعه حتى صار انسانا او حيوانا وهذا التحول البديع يدل على قدرة قادر على اعادة المعدوم وقوله «مما لا يعلمون» اي مما لا يتعلق علمهم بكيفية ايجاد نوع من الخلق فالكون

والفساد يطرأ على الصور لا على الاصل فاذاً لا مجال لانكار اعادة المعدوم
(وآية لهم الليل نسلخ منه النهار فاذا هم مظلمون) بعد ان بين
بدائع قدرته في الارض بين قدرته و بدائعها بالافلاك حيث ان الايـة
تصور بدائع تحول الليل والنهار ومعنى الايـة انه تعالى ازال الليل من
النهـار وجعله مظلما لان معنى الانسلاخ هنا هو الازالة وفيه استعارة
وذكر العلامة سعد الدين في ذلك تحقيقاً وافياً

نذكرها اجمالا فاقول : الانسلاخ بمعنى الازالة لان التفريع بقوله
تعالى « فاذا هم مظلمون » يقتضي ذلك . واذا قلنا الانسلاخ بمعنى الازالة
حسن التفريع « فاذا هم مظلمون » . وفي الاية ايضا استدلال على قدرته
تعالى لان هذا التحول في الليل والنهار لا يحصل الا بقدرة قادر عليم وفيها ايضاً
دليل على ان اعادة المعدوم ممكن فتكون الاية من قبيل الاستدلال بالنظير
(والشمس تجري لمستقر لها ذلك تقدير العزيز العليم) هذا دليل ايضاً
على قدرته تعالى لان دوران الشمس وسيرها في نظام معين ولغاية بحيث لا
يمكنها ان تتجاوز تلك الغاية يقتضي قدرة باهرة وتحولها في ذلك الدوران
من حال الى حال دليل على ان اعادة المعدوم ممكن والعلماء تكلموا في حركة
الشمس فالاقدمون ذهبوا الى انها متحركة حركة يومية والمتأخرون قالوا
انها تتحرك في فلكها حركة بطيئة وذهب الطوسي في التذكرة بما يطول
شرحه هنا وغير الطوسي تكلم ايضاً في بدائع الشمس كلاماً يصور باهر
قدرة الله تعالى

(والقمر قدرناه منازل حتى عاد كالعرجون القديم) وهذه الاية ايضاً
استدلال على قدرته تعالى وايقاظ يرشد المنكر بان اعادة المعدوم ليس بمحال
وذلك ان القمر يجري بحركات معينة ومنازل مخصوصة ينتقل كل يوم من
منزل الى منزل ثم ذلك التحول في كل شهر يعود ثم يفني ثم يعود تحت

نظام اذ يبدأ القمر اولا هلالا ثم يخرج من تحت افقه تدريجاً و يعلو على افقه وحينئذ يتمكن ان يستضيء من نور الشمس لان القمر له حركة فوق الافق واخرى تحت الافق

يقطع الدائرة في كل اربعة وعشرين ساعة مرة الا انه يسير تحت افقه اكثر من سيره فوق افقه بدورته المعينة له و ينتقل في كل يوم الى منزل كما هو محرر في علم الهيئة ومنازل سيره مقدرة لا يمكنه ان يختلف عنها وحركاته معينة لا يمكنه ان يزيد او ينقص ومن المعلوم ان القمر جماد لا يعقل وسيره بهذا الانتظام انما كان بقدرة العليم الحكيم ثم عندما ينتهي سيره يكون كالعرجون القديم اي ملتويا بالياً ثم يعود من تلك الحالة الى حالة زاهية منيرة وفي هذا اشارة الى بيان ان المعدوم يعاد

(لا الشمس ينبغي لها ان تدرك القمر ولا الليل سابق النهار وكل في فلك يسبحون) وهذا ايضا نوع من الاستدلال على قدرته تعالى المنوهة بالحكمة وفيها بيان ايضا بانه خلق السموات وجعل فيهما النيرين وقدر لكل منهما سيراً معيناً وفلكا مخصوصا يدور كل منهما في دائرته المعينة وذكر علماء الهيئة ان الشمس لها حركة معينة تدور على محورها وحركة اخرى بطيئة وان ليس للشمس حركة سريعة جداً وعلى ذلك نظمها الله تعالى حسبما يقتضيه التكوين وكل منهما يحفظ وضعه الطبيعي والاية تشير الى ذلك « لا الشمس ينبغي لها ان تدرك القمر » اي ليس فيها قابلية السير السريع فالقمر اسرع منها ومعنى « ولا الليل سابق النهار » اي ان الليل في اصل الوضع خلق قبل النهار ثم استخرج من هذه الظلمة نوراً وهذا دليل على ان العدم اصل الا انه لما اقتضى التوازن جعل في الليل وضعا ثابتا لا يسبق النهار فالليل له وقت والنهار له وقت معين وهـذا النظام هو الذي حفظ الاختلال في الافلاك وحمى الكون من الفناء حيث ان كل منهما اذا

جاوز فلكه اختل التوازن بينهما فتنتج المصادمة وخراب الكون فان قيل ما الحكمة في البحث عن الارض وما فيها والافلاك وما فيها و كيفية تكوينها قلت ان المشركين انكروا اعادة المعدوم لان الانسان اذا عدم وكان ترابا فاعادة الحياة من التراب تارة اخرى خارج عن الامكان ولذا كانوا يجادلون النبي عليه الصلاة والسلام و يصرون عناداً في انكارهم و يرون ان قدرة الله تعجز عن اعادة المعدوم فذكر تعالى قدرته و بينها بانواع من الدلائل التي لا تترك مجالا لمتردد ولا شبهة لمتفكر وضمن تلك الدلائل ما يحمل المتامل في بدائع حكمته ان يذعن بان الله يفعل ما يريد اذ ذكر في كل دليل امراً محسوساً مشهوداً يحتوي على بدائع القدرة يدركها لبداهتها ضعيف العقل ولذا تنوعت الدلائل

وذكر علماء الهيئة في مباحث الشمس والقمر تفاصيل وانواعا من البدائع لا يسعها هذا المقام ولذا اعرضنا عنها . ومعنى « يسبحون» المراد الحركة المنظمة وانما جمع جمع العقلاء اشارة الى ان حركة الشمس والقمر والليل والنهار حركة منظمة لا تصدر الا من العقلاء وهذا ايضا دليل على ان الله قادر على اعادة المعدوم

(وآية لهم انا حملنا ذريتهم في الفلك المشحون وخلقنا لهم من مثله ما يركبون) و بعد ما بين تعالى دلائل قدرته عاد لبيان حال الانسان انه ينكر المنعم ولا يشكره كما هو المفهوم من قوله تعالى « وآية لهم انا حملنا ذريتهم في الفلك المشحون » ومعناه انا نجيناهم من الغرق يوم الطوفان وارشدناهم الى صنع الفلك ليتمكنوا من السير في البحر والاستثمار من منافعه ومعنى « مشحون » اي مستعد للشحن ومعنى حملنا ذريتهم اي الاصول الذي ينتمون اليه واكثر المفسرين قالوا المراد بالفلك المشحون هو فلك نوح عليه السلام « وخلقنا لهم من مثله ما يركبون » اى خلقنا

لنوع الانسان كثيراً من الحيوانات وغير ذلك لتكون واسطة لنقلهم ولتحميهم من الاتعاب ولتكون واسطة للتعارف بين الممالك (وان نشأ نغرقهم) ذكرت هذه الاية بيانا لقدرة تصرفه بخلقه وانه فعال لما يريد

(فلا صريخ لهم ولا هم ينقذون) كناية عن عجزهم و بيان ان ليس في وسع البشر ان يكون مانعاً لما يريد الله تعالى وصور هذا المعنى بقوله فلا صريخ لهم ولا هم ينقذون اي عندما كانوا في البحر منفردين بين هياج البحر من كل جانب تغمرهم بافواجها فمن هناك ينقذهم ومن الذي يسمع صريخهم

(الا رحمة منا ومتاعا الى حين) استثناء مما سبق اي ليس لاحد ان ينجيهم عندما تفاجئهم البحار بامواجها الا رحمتنا وقوله (متاعاً الى حين) في حكم التعليل بالرحمة على المشركين اي نرحمهم في ذلك الوقت العسير لعلهم يرجعوا عن الشرك و يؤمنوا بالله وضمن تعالى هذه الاية ان الفاعل والمالك للامور هو الله فلا يجوز ان يعبد غيره و يعرض عن شكره

(واذا قيل لهم اتقوا مابين ايديكم وماخلفكم لعلكم ترحمون) بعد ان بين الدلائل شرع تعالى في بيان فساد فطرتهم حيث انهم لا يسمعون النصح لفساد ملكات عقولهم كما هو مفاد الاية « واذا قيل لهم » ذكر بصيغة المجهول اشارة الى ان القائل كان لا يلتفت اليهم لانهم الفوا الفساد ومعنى « اتقوا ما بين ايديكم » تتضمن ظهور الفساد وانهم يصرون عليها وان كانت ظاهرة بين ايديهم فتكون تأييداً و بيانا لما طبعوا عليه من الجهل ، وقوله « وماخلفكم » اشارة الى ان سيرهم يورث خسرانا في الدنيا والاخرة وقوله « لعلكم ترحمون » يخاطبهم بما يصلح شؤونهم على ان يعرضوا عن المفاسد

(وما تأتيهم من آية من آيات ربهم الا كانوا عنها معرضين) وهذه الاية ايضا تقرر المفاسد التي طبعوا عليها نفوسهم وتبين انهم امة انغمسوا

بالشهوات واعرضوا عن الصالح الاجتماعي فلا يريدون ان يدخلوا تحت اجتماع وشرع ونظام

(واذا قيل لهم انفقوا مما رزقكم الله قال الذين كفروا الذين آمنوا انطعم من لو يشاء الله اطعمه ان انتم الا في ضلال مبين) بعد ان بين تعالى اعراضهم عن انتخاب الاصلح وانهما كهم في اهوائهم واعراضهم عن ملائمة المصالح العامة وانهم لا يشكرون المنعم عاد لبيان ملكات نفوسهم الخبيثة الخالية عن الرحمة فقال « واذا قيل لهم انفقوا مما رزقكم الله » عبر بصيغة المجهول اشارة الى ان الناصح اي كان لا يلتفت اليه ولا يقبل نصحه . الاية تصور فساد اجتماع المشركين وتعلل ذلك الفساد بانه مبني على اللاتعاون الذي حصل بسبب الشرك والكفر كما هو المفهوم من ذكر الشيء بصفته « وقال الذين كفروا الذين آمنوا » اشار الى ان الكفر هو الذي صرفهم عن التعاون وان الايمان هو الذي جعل في النفوس ملكة التكافل حتى صار ذلك من معتقدات المؤمنين الراسخة في نفوسهم وقالوا استهزاء بالمؤمنين « انطعم من لو يشاء الله اطعمه » ومعناه انتم تعتقدون ان الله يطعمهم

(ويقولون متى هذا الوعد ان كنتم صادقين) بيان بان تعدد الايات لم تؤثر على طباعهم ولا غيرت من نفوسهم شيئاً اذ عادوا على ما كانوا عليه من الاصرار وقالوا « متى هذا الوعد » اى الحشر والنشر والثواب والعقاب ذكر متى اشارة الى استبعادهم ذلك الوقت الموعود « ان كنتم صادقين » جاء بان الشرطية المفيدة للشك بصدقهم اشارة الى انهم غير موقنين لذلك الوعد اذا ظهر الكفر بعد ان ضاق عليهم المجال واعترفوا بما يضمرونه في نفوسهم

(ما ينظرون الا صيحة واحدة تأخذهم وهم يخصمون) بيان لقرب

ما استبعدوا من الحشر وقيام الساعة والثواب والعقاب وتصوير ان ذلك لا بد من حصوله وانه يفاجئهم ومعنى « وهم يخصمون » يتخاصمون في امورهم فان انغماسهم في الغفلة ونسيانهم لامر الاخرة يجعلها كالمفاجئ

(ولا يستطيعون توصية ولا الى اهلهم يرجعون) اي تأخذهم الصيحة فلا يستطيعون توصية ولا الرجوع الى اهلهم وهذا كناية عن اخذ الغافل الناسي لصالح امره فانه عند اقتضاء الحاجة لا يمكنه ان يهيئ الاسباب اللازمة لقضائها

(ونفخ في الصور فاذا هم من الاجداث الى ربهم ينسلون) تصوير لقدرته بانه مقتدر على اعادة المعدوم واحياء الموتى بمجرد ما تتعلق ارادته فانهم يخرجون من قبورهم احياء

(قالوا ياويلنا من بعثنا من مرقدنا) الجملة حالية اي يخرجون من قبورهم قائلين « ياويلنا من بعثنا من مرقدنا » اشار الى ان عذاب القبر هائل وعند ما يرى المشرك هول المحشر يضطربوا ويقولوا ياويلنا تقال عند شدة العذاب وهوله ورجوع الانسان بالملامة على ما فرط من امره [هذا ما وعد الرحمن وصدق المرسلون] كذبنا وعد الله واعرضنا عما بينته الرسل لنا وكذبناه فالان شاهدنا ما وعد الرحمن وثبت لنا صدق المرسلين الاية تصور حال المعرض عن النصح الجاهل في الصالح وفيها اشارة الى حصول اللائمة والاضطراب

[ان كانت الا صيحة واحدة فاذا هم جميع لدينا محضرون] اي هذه الفعلة وحصولها وجمع الناس للحساب ما هي الا عبارة عن تعلق ارادته بالايجاد اي محضرون في محكمتنا محاسبون على ما فعلوا

[فاليوم لا تظلم نفس شيئاً ولا تجزون الا ما كنتم تعملون] فلما بين

الله بانه يجمعهم في ذلك اليوم ويحضرهم ليحاكمهم اراد ان يبين ما يزيل الوهم في كيفية المحاكمة ويصور الحكم والعدل فقال تعالى [فاليوم لاتظلم نفس شيئاً اي حكم عدل « ولا تجزون » الا بسبب اعمالكم فالعمل هو مناط الحكم وعليه يترتب الثواب والعقاب

[ان اصحاب الجنة اليوم في شغل فاكهون هم وازواجهم في ظلال على الارائك متكئون لهم فيها فاكهة ولهم ما يدعون] الاية تصور النعيم المعنوي الذي يحصل في الجنة بتلك الصورة المادية التي هي غاية نعيم الدنيا « هم وازواجهم في ظلال على الارائك » اشار الى نفي الوحشة وقوله تعالى «هم» بان النعيم منحصر فيهم وان غير اصحاب الجنة يشغلهم العذاب فان قيل لماذا خصص اصحاب الجنة ولم يذكر اصحاب النار قلت انه لما حصر النعيم باصحاب الجنة افادت الاية ان اصحاب النار يشتغلون في العذاب « لهم فيها فاكهة ولهم ما يدعون » اي لهم فيها ما يتفكهون به وما تشتهيه انفسهم ذكره لبيان تمام السعادة

[سلام قولا من رب رحيم] بيان بان الامر مقرون بالامن وذلك لشراحة القلب والخيال اي هم منعمون من كل جهة

[وامتازوا اليوم ايها المجرمون] اي انعزلوا ايها المجرمون

[ألم أعهد اليكم يابنى آدم ان لا تعبدوا الشيطان انه لكم عدو مبين] اي ألم ائتكم بالحجة والدليل وارسل لكم الرسل مبينين مبلغين وهداة مرشدين . ذكر هذه الاية حجة عليهم بان حكم الله بالنعيم لاهل الجنة الذين اطاعوا اوامره واعرضوا عن نواهيه وحكمه عليكم بالعذاب حكم عدل فالله بين ان الاهواء والانقياد الى ارادة الشهوة هو ضلال لا يرضى به الخالق وانها تسوقهم الى اسوأ حال ولكن اعرضوا عن هذا البيان واتبعوا الاهواء واعرضوا عما يريد الله كما هو المفاد من قوله (ان لا

تعبدوا الشيطان انه لكم عدو مبين)

[وان اعبدوني هـذا صراط مستقيم] بينت لكم طريق النجاة واوضحت سبيل الهداية فاخترتم الضلال ومتابعة الهوى واعرضتم عن عبادتي وهذا من قبيل عطف الجملة على ما قبلها وهو قوله تعالى ان لا تعبدوا الشيطان . فعلى هذا يكون الكلام دائراً بين الامر والنهي اي نهيتك عما يضلك وامرتك بما ينجيك ولكن انت اخترت طريق الضلال واعرضت عن طريق الهدى والنجاة فيكون التقريع والملام مرتباً على استحقاقهم مبنياً على اختيارهم المفاسد . وقوله تعالى « هذا صراط مستقيم » بدل من قوله « ان اعبدوني » ذكر الكلام هنا على طريق البدلية بيانا لما في الامر في عبادته من دواعي النجاح الا انه ذكر على طريق الاستعارة التحقيقية

(ولقد اضل منكم جبلاً كثيراً أفلم تكونوا تعقلون) الاية تشير الى ان فطرة البشر مغلوبة للشهوات لا للتعقل والافتكار وعند هياج الشهوة لا تميز بين العدو والصديق بل تسعى وتميل الى من يعينها للوصول الى شهواتها غير مبال بما يكون بعد ذلك . وبيان بان البشر يعرض عما يقتضيه الاعتبار ويتبع الاهواء ولا يحسن التعقل حيث انه كثيراً ما رأى المصائب من انقياده الى اهوائه ولم يعتبر . « ولقد اضل » اى اخرجه عن استحقاق الاحسان وافاضة النعيم عليه ويجوز ان يكون الضلال هنا عاماً شاملا لما يكون في الدنيا والآخرة . « وجبلا كثيراً » يعني امماً كثيرة ووصفها بالكثرة تنبيهاً على كونها محل الاعتبار . وقوله « أفلم تكونوا تعقلون » تهديد وتوبيخ على اطاعتهم وانقيادهم لامر هو بالاعراض احق فيكون قوله تعالى « أفلم تكونوا تعقلون » كالحكم عليهم بانهم كالبهائم لا يتدبرون

(هذه جهنم التي كنتم توعدون) ولفظ هذه اشارة الى ما يشاهدونه باعينهم من وجود جهنم المشار اليها بهذا ووصفها بجملة الموصول تنبيهاً الى انها هي الموعود بها ليتحقق عندهم صدق ما وعدوا به . وقوله « التي كنتم توعدون » هي وجملة الموصول وقعت وصفاً لجهنم ولا يخفى ما في هذه الاشارة وهذا الوصف من تقريع للمنكرين

(اصلوها اليوم بما كنتم تكفرون) بيان لاستحقاقهم بانهم لا يستحقون الا العذاب حيث انه اكد بقوله بما كنتم تكفرون مبيناً سبب العذاب وموضحاً ان انكار ما وعدوا به كفر فان قيل لماذا قال اصلوها والكلام يقتضي ان يقول ادخلوها لان الاية السابقة وهي قوله تعالى هذه جهنم تفيد انهم كانوا غير داخلين في جهنم قلت ان مفاد الاية اعم من ان يكون داخلين في جهنم او غير داخلين وقوله « اصلوها اليوم بما كنتم تكفرون » بيان للغاية المرتبة على الكفر وكانت الاشارة للتقريع فحسب

(اليوم نختم على افواههم وتكلمنا ايديهم وتشهد ارجلهم بما كانوا يكسبون) كناية عن الدهشة التي تحصل في ذلك اليوم الذي يفاجئهم فيه شدة العذاب فتكون استعارة تحقيقية وقوله تعالى (وتكلمنا ايديهم) كناية عن اننا نأخذهم بذلك العذاب بالعدل ونقيم عليهم شهوداً من انفسهم فايديهم تكلمنا بتفاصيل اعمالهم وارجلهم تشهد عليهم بما كسبوا واختاروه لانفسهم وفي الاية ايذان بان اصحاب الشهوات تطيروا عن الاعمال الصالحة وانغمسوا بالمفاسد فلا يستحقون الا ذلك العذاب

(ولو نشاء لطمسنا على اعينهم) بعد ان بين افعالهم القبيحة وانقيادهم الى شهواتهم اراد ان يبين قدرته الباهرة جل جلاله اي خلقناهم احراراً وجعلنا فيهم عقولا تدرك الخير والشر ليكونوا احقاء فيما يترتب عليهم

من الحكم ونحن قادرون على ان نسلب منهم تلك الحرية ونجعل حالهم كحال الاعمى الذي لا يمكنه ان ينال ما يريد (فاستبقوا الصراط فانى يبصرون) اي اذا ابتدأوا ان يسيروا فيما يرومون فلا يمكنهم الوصول الى الغاية

(ولو شئنا لمسخناهم على مكانتهم فما استطاعوا مضياً ولا يرجعون) اي سلبنا عنهم قدوة السير وازلنا عنهم تعقل الانتخاب وجعلناهم كالمقعد لا يمكنه المضي في امر ولا الرجوع عنه وهذا كناية عن سلب القدرة بتمامها ولكن لم نفعل ذلك واعطيناهم كل ما يقتضي من التعقل والقوة وترجيح الارجح ليكونوا احقاء وقال البيضاوي انهم بكفرهم ونقضهم ما عهد اليهم احقاء بان يفعل بهم ذلك ولكن لم نفعل لشمول الرحمة واقتضاء الحكمة امهلناهم وهذا قريب من سوق الاية

(ومن نعمره ننكسه في الخلق أفلا يعقلون) بعد ما بحث عن فطرة البشر وتهاجمه على الشهوات وحبه للمعصية عاد الى تنبيهه وايقاظه تارة اخرى فقال « ومن نعمره ننكسه في الخلق » اي نطيل اجله فيعيش زمناً طويلا ثم تعود تلك العوارض متنازلة الى الضعف ومحو القوى بان نجعله ضعيفاً هرماً ونحوله من حالة الى حالة اخرى فهو متحول آناً بعد آن فهذا التطور لاينفك عنه الى امد معلوم وبعد ذلك ينطوي في طيات الفناء وفي الاية ايضاً استدلال على اعادة المعدوم وايقاظ البشر للاعتبار

(وما علمناه الشعر وما ينبغي له) اي ليس النبي بشاعر ولا القرآن بشعر فالعرب عند ما نزل القرآن وكان ينشر ما يجذب القلوب بفصاحته وبلاغته ويرشد البشر الى عالم ارقى من عالمه الذي هو فيه اراد الضالون ان يمنعوا نشر هذا النور ويقفوا سداً منيعاً في انعكاس ذلك النور الساطع بدأوا يشيعون بين قبائل العرب بان محمداً عليه الصلاة

والسلام شاعر والقرآن من اشعاره وظنوا بذلك انهم يحطون من منزلة النبي عليه الصلاة والسلام ومنزلة القرآن و يفهموا الناس بانه ليس كتاب سماوي ولكن ما يتضمن القرآن من اسرار وحكم كان يهدم ما بناه الضالون ويرفع محمداً عليه الصلاة والسلام عن كونه شاعراً و يثبت بانه كتاب سماوي فانزل الله هذه الاية تبرأة فقال « وما علمناه الشعر وما ينبغي له » اي ليس محمد بشاعر ولا يحتاج الى الشعر « ان هو الا ذكر وقرآن مبين » اى موعظة ترشد الناس الى التفكر بالحقائق وتخرجهم عن ظلمات الضلال والحياة الممزوجة بالاوهام وترفعهم الى حياة راقية « وقرآن » وصف القرآن بالمبين لما في احكامه ومواعظه الارشادية من الاحوال الموجبة الرحمة حيث ان البشر قبل عصر النبي كانوا في فوضى مستمرة حيث كانت الحقوق المتبادلة غير معينة والعوبة بيد الامة الجبارة لا سيما والبشر يعجز عن ادراك تفاصيلها فجاء القرآن ناشراً تلك الاحكام التي اطمأنت لها النفوس وطابت وعلم كل فرد من افراد البشر انه يمكنه ان يعيش في هناء حيث يستند على احكام القرآن الذي شمل في فيض رحمته الضعيف وصار مانعاً لتطاول يد الجبار ان يعبث في حقوق البشر « وان » هنا تفيد النفي اي ليس هو بشعر ولا غير ذلك بل هو قرآن مبين

(لينذر من كان حياً و يحق القول على الكافرين) القرآن لما بين الدلائل والحجج المرشدة الى معرفة الله واوضح الاحكام التي هي منهاج الهدى المتكفل بتأييد المصالح المتلائمة وتوزيعها على مستحقيها علل الاخلال بالمصالح بقوله « لتنذر من كان حياً » اي من يريد الحياة (ويحق القول على الكافرين) اي الذين لا ينقادون لتلك الاحكام ولا يلتفت الى الحجج والآيات البينة والمراد بالقول هو اصلائهم في جهنم وهي عطف على قوله لينذر فيكون قوله تعالى ان هو الا ذكر وقرآن مبين معلل

بامرين احدهما لينذر من كان حياً والثاني ويحق القول على الكافرين فان قال ما معنى قوله ويحق القول على الكافرين قلت معناه ان القرآن يلزم الخصم بالحجة ولا يترك له معذرة لانه بين سبيل الضلال ونهى عنه وبين سبيل الهدى وامر به ولم يترك مجالا للارتياب فمعنى يحق القول اي يلزمهم العذاب جزاء لانتخابهم سبيل الضلال الذي نهوا عنه ثم انه تعالى سماهم بالكافرين لرفضهم اوامره ونواهيه واعراضهم عن النظر والبرهان

(أولم يروا انا خلقنا لهم مما عملت ايدينا انعاماً فهم لها مالكون) بعد ما سفه عقولهم وبين انها محجوبة لا تدرك الحقائق ولا تتفكر فيها عاد الى تزييف حسهم وبين انه مختل كأنه مصاب بعماء فقال تعالى « أولم يروا » واراد بذلك التوبيخ والتبكيت وشبه حالهم بحال الاعمى ووجه الشبه عدم الاهتداء الى الحقيقة . ومعنى وخلقنا لهم مما عملت ايدينا اي قدرتنا انعاماً اي ابلا وغير ذلك « فهم لها مالكون » اي انا خلقناها وخصصناهم بملكها وسخرناها لهم وفي هذه الآية اشارة الى رداءة طباعهم وفساد فطرتهم حيث انهم لا يشكرون المنعم

(وذللناها لهم فمنها ركوبهم ومنها يأكلون) وذللناها لهم اي جعلناها منقادة رغماً عن كونها اقوى منهم لتحصل النتيجة من تملكهم ويتحقق الاستثمار . فمنها ركوبهم اي مركوبهم ومنها يأكلون اي ماكولهم من البانها

(ولهم فيها منافع ومشارب أفلا يشكرون) اي ينتفعون باوبارها ونقل امتعتهم عليها ويشربون من حليبها فكان الواجب عليهم ان يشكروا المنعم على ذلك ولكنهم لرداءة طباعهم كفروا وفي قوله تعالى أفلا يشكرون توبيخ وتنديد حيث انه ذكر بهمزة الاستفهام والنفي المفيد

للتقريع اي لماذا تركتم شكر من الزمكم شكره بتوارد نعمه عليكم ولولا خالقه لهذه النعم وتذليله اياها كيف امكن التوصل الى تحصيل هذه المنافع المهمة . وبعد ما بين رداءة طباعهم اراد ان يبين انغماسهم بالعناد فقال تعالى (واتخذوا من دون الله آلهة لعلهم ينصرون) اي لما رأوا الدلائل والبراهين في انفسهم وفي الافاق وعلموا ان الله واحد تفرد بالقدرة ارادوا ان يتخلصوا من ذلك فاتخذوا الهة اشركوها به في العبادة وكانت الغاية من ذلك الاتخاذ استنصارهم وتسهل امور شهواتهم وتأيدهم في مطالبهم واشار يقوله لعلهم ينصرون ان هذه الامنية ظنوا انها رجاء محقق الوقوع ولهذا صدرت بلعل لا ليت

(لا يستطيعون نصرهم وهم لهم جند محضرون) اي اتخذوا آلهة تنصرهم على من يعارضهم وتؤيدهم بتوارد النعم عليهم غير ان الامر بالعكس لانهم لا يستطيعون نصرهم وجملة لا يستطيعون نصرهم صفة آلهة كانت تأبى نفوس المشركين توحيد المعبود لانهم الفوا الشرك وليس في امكانهم عبادة الله وحده او لان عقولهم الابتدائية ليس في امكانها ان تسير في فضاء توحيد الاله بل الفت المحسوس فلذلك كانت تعبد الاصنام وتصر على عبادتها « وهم لهم جند محضرون » بيان في الكيفية التي تكون وراء هذا الانكار اي ان الالهة التي اتخذوها لنصرتهم عاجزة من ان يحفظونها وهذه الاية تصور عقول المشركين وتبين قصور معرفتهم بالله . « محضرون » اي تجمعهم مع اعوانهم وفيه اشارة الى ان عبادة غير الله كفر يؤاخذون عليها

(فلا يحزنك قولهم) تفريع على ما سبق وتسلية الى النبي صلى الله عليه وسلم وبيان بان النبي عليه الصلاة والسلام كان يحزن عند ما يرى العرب مصرين على الشرك ومنغمسين متباعدين عن النظر لان الثقافة

العقلية اختل نظامها فلذلك (انا نعلم ما يسرون وما يعلنون) فنجازيهم على افعالهم وعلى نواياهم السيئة فيكون هذا تعليل لقوله « فلا يحزنك » وتسلية للنبي و بيان بان ما فعلوه يستلزم الجزاء

(أولم ير الانسان انا خلقناه من نطفة) هذه الاية تصور الزام البشر بان يتأمل في كيفية ايجاده ليعلم بدائع القدرة حيث انه خلق من نطفة فليس اللائق به ان يقف موقف الخصم ولا يسوغ له ان ينكر الخالق و يأبى الارشاد و يتظاهر متخاصما بعد ذلك العجز الذي فطر عليه . قال البيضاوي تسلية ثانية بالنسبة الى انكارهم الحشر وفيه تقبيح بليغ لانكارهم حيث عجب منه وجعله (فاذا هو خصيم مبين) لائمة تصور حالة الانسان وتذكره بمبدأ حياته وتطوره حيث ان الله رباه واعطاه قوة وادرا كا كان يلزمه الشكر ولا يكون مخاصما والتفريع انبأ بان الانسان يميل الى انكار الحقيقة وهذه الاية نزلت في اناس من المشركين وقفوا للنبي صلى الله عليه وسلم مخاصمين معاندين فعلى هذا لا يكون المراد من « ال » التعريف الداخلة على الانسان العمومية بل للعهد الذهني « وخصيم » بمعنى مخاصم

(وضرب لنا مثلا ونسي خلقه) فان اناساً من المشركين اخذوا عظما بالياً وقالوا للنبي صلى الله عليه وسلم أهذا يحيا و يعود الى ما كان عليه وهذا معنى قوله « وضرب لنا مثلا ونسي خلقه » اي لو تأمل في مبدأ ايجاده لما ضرب لنا هذا المثل اي انه كان قبل هذه الصورة الموجود فيها الان ترابا ثم تحول من ذلك العنصر الى صور لو تذكر ذلك التحول لما كان يبادر الى هذه المخاصمة وضرب المثل فان الانسان وجد بهذا الهيكل المعلوم من نطفة فليس من المستبعد اذاً اعادة المعدوم

(قال من يحيي العظام وهي رميم) من تتمة الاية قل نسي خلقه

جملة معترضة ذكرت للتبكيت والتوبيخ . وقال البيضاوي نزلت هذه الاية في ابي ابن خلف حيث انه كان ينكر البعث واحياء الموتى وقال للنبي صلى الله عليه وسلم ايحيي هذا ربك « قل يحييها الذي » اي يحيي العظام الرميم الذي انشأ العالم اول مرة

(وهو بكل خلق عليم) هذا استدلال ثاني ذكر بعد الاستدلال الاول الذى هو قوله تعالى « ونسي خلقه » فانه اقرب للتأمل فانه ذكر المخاصم ان يتأمل في حياته التي هو فيها و يعيد النظر الى مبدأ حياته والثاني استدلال عام يتضمن ايقاظاً و يحث الانسان المخصم وغيره ان يتأمل في تكوين الخلق وعناصره التي تألف منها كيف تطورت وصارت احياء وخلقاً متنوعا فعند ذلك يعلم قدرة الله . ثم لا كلام ان هذا الاستدلال من البراهين الموصلة الى اليقين لان اعادة المعدوم ليس بمحال وقوله (وهو بكل خلق عليم) دفع لما يتبادر الى ذهن المخاصم بان اعادة المعدوم تحتاج الى احاطة علم بالاجزاء البالية وجمعها وتعين صور كل فرد على ما كان عليه فقال « وهو بكل خلق عليم »

(الذي جعل لكم من الشجر الاخضر ناراً فاذا انتم منه توقدون) اي الذي يعيد المعدوم والذي جعل النار من الشجر الاخضر وقيداً لكم وهذا صور مظاهر قدرته حيث حول الصور المتنافية وجعلها متجانسة فلا يعسر عليه ان يحيي هذه العظام (أوليس الذي خلق السموات والارض بقادر على ان يخلق مثلهم بلى وهو الخلاق العليم) وهذا ايضاً دليل على اعادة المعدوم و بيان بان الذي يخلق اول مرة لا يعسر عليه اعادة الخلق (انما امره اذا اراد شيئاً ان يقول له كن فيكون) ومعناه ان القدرة الالهية اذا تعلقت بامر لا يتخلف ولو آناً (فسبحان الذي بيده ملكوت كل شيء واليه ترجعون) تقرير للوحدانية فان المالك للامور كلها هو الله وليس من الجائز ان يكون المملوك الهاً

«تمت»